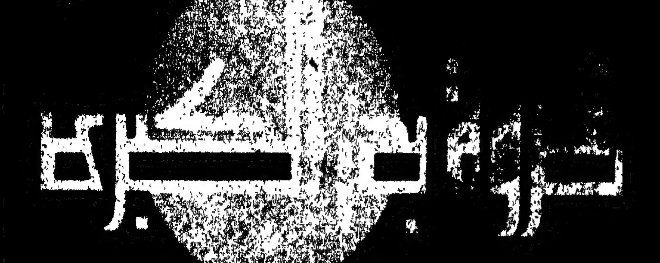






جمال حماد



الإهداء

مِنْ مَنْبَعِ الضّياء والإيمانِ

والنّصرِ والتّوحيدِ والقرآنِ

قَبَسْتُ منه قِصّةَ الفُرقانِ

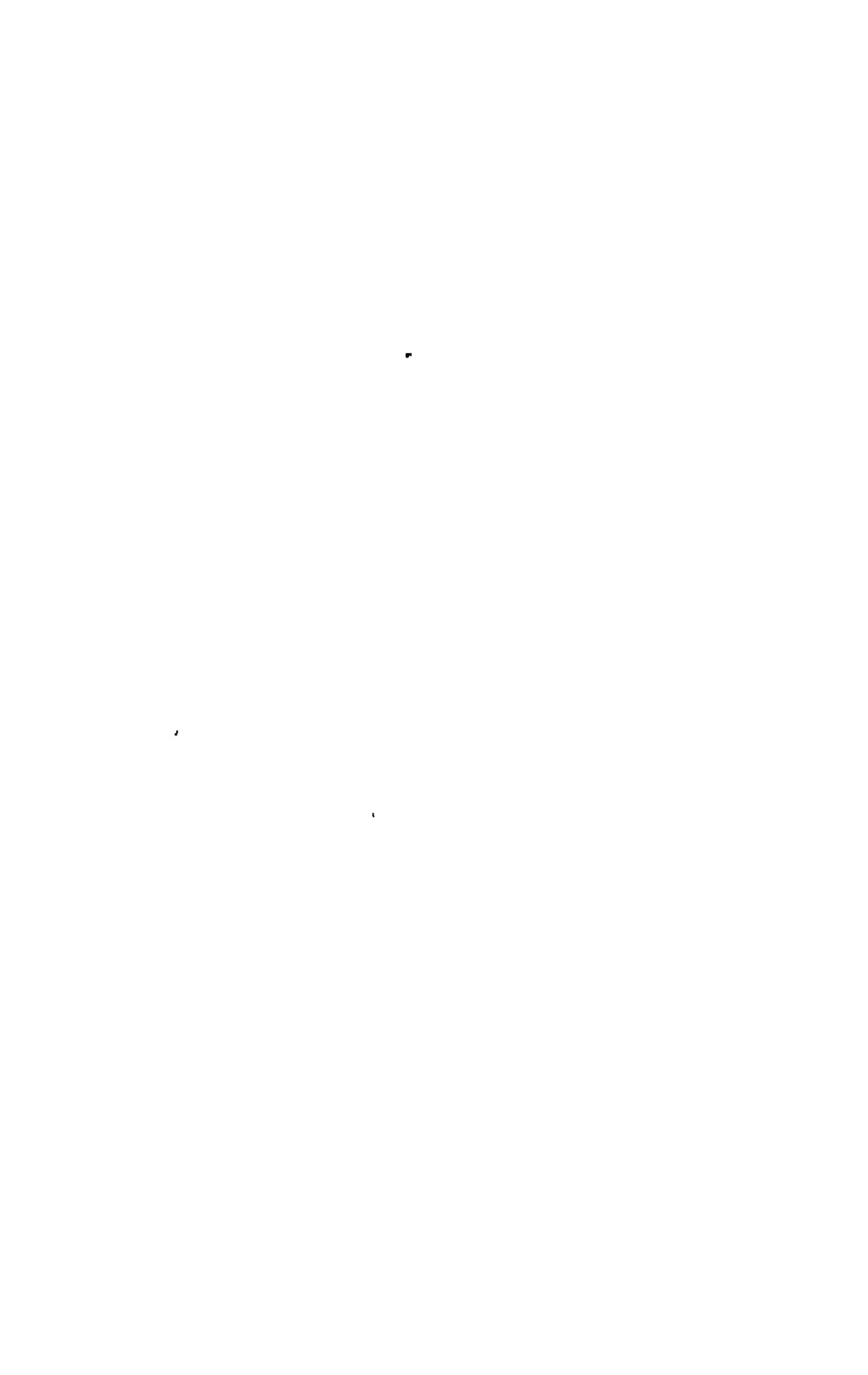
إلى "جمالٍ" قائدِ الشجعانِ

وَ "ناصرِ" الاسلام والأوطانِ

حتى تكونَ في مَدَى الزمانِ

رَمزَ الوفا والحُبِّ والعرفانِ

جمال حماد



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أحمد الله سبحانه على الفضل الكثير والنعمة السابغة ، وأصلى وأسلم على نبيه محمد من جاء بالدين القيم والبطولة الرائعة والحجة الدامغة ، وأسأله سبحانه أن يلهم الصواب فى القول والعمل وأن يرزق الأمن والنصر فى السلم والجهاد إنه سميع مجيب .

وبعد

فاننى منذ اتجهت فى أول نضج الشباب إلى دراسة المواقع الحاسمة فى الإسلام وأخرجت فيها كتاباً سميته « معارك الإسلام الكبرى » — وهو تحليل لهذه المعارك من الناحية الحربية —

أقول : منذ ذلك الحين وأنا كلما عدت إلى وقعة بدر وموقف المسلمين فيها والغنائم التى أسفرت عنها وحاولت أن أجد لها شبيها فى مواقع التاريخ لم أجد بدأ من أن أعقد بينها وبين أى معركة أخرى من المواقع الحربية والبطولات البشرية مشابهة ونسباً .

ولطالما عدت إليها وقرأت تفاصيلها والظروف التى اكتنفتها وأحاطت بها فى شتى الكتب والمراجع التى تتحدث عنها إجمالا وتفصيلا من القرآن والحديث

والتفسير والسير والقصص فلم تزدنى الاستزادة من القراءة والبحث والاطلاع إلا وثوقاً فى أنها كانت الموقعة الفذة الفريدة التى جاءت بنتائج لم تكن مأمولة منها ولم تكن الأسباب التى توفرت فيها مؤدية إليها ، فثبت لدى ثبوتاً قاطعاً — إيماناً وعقلا — أنه لم يكن لها قط شبيه فى كل مواقع التاريخ .

وحينما استقر فى نفسى هذا الحكم مؤيداً بالأدلة القاطعة والحجج الباهرة الدامغة رأيت أن أفردها بكتاب يلم بأطرافها ما أمكن لبشر — هو فى مظنة التقصير والخطأ — أن يلم أو يحيط .

وهذا الكتاب فيها هو غاية الجهد لرجل تلقى عليه واجبات شاقة وتحمل عليه مسئوليات جسيمة ، فلم يحن له ولم يتيسر أن يتفرغ للأمر كل التفرغ أو معظمه ، ولو قدر له ذلك لكان جديراً ببحثه أن يستفيض استفاضة أكثر ولكتابه أن يحتل مكاناً أفضل .

ولكن حسبي أنى جهدت له وبذلت فيه عنايتى وجمعت له من الأسباب والدواعى ، والحوادث والأحكام ، والنتائج والآثار ، ما يجعله مغنياً بعض الغناء ، ولو أنه لم يستوعب كل ما يمكن أن يقال فى هذه الغزوة الكبرى التى كان نصر الإسلام فيها نصراً مؤزراً فريداً ، بل كانت الأس الأول الذى بنيت عليه الانتصارات المتتابعة الحاسمة لأتباع هذا الدين الحنيف ، والتى أصاب أصحابها من الجزاء ما لم يصب أحدا من المحاربين فى موقعة غيرها من الجزاء الحسن والنعيم المقيم .

ثم أفردت كتابى هذا بنظرة للوقعة الكبرى من الناحية العسكرية والسياسية ، وهو ما لم تذهب إليه البحوث الأخرى التى تحدثت عن الغزوة ، ثم بذلت اهتمامى فى الموازنة بين « التكتيك » الحربى فى تلك الغزوة وبينه فى الحروب الحديثة ، ثم فيما كان فيها من السياسة الحربية الفائقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وما صدر فيها من آداب القتال ووجوب المحافظة على النصر وعدم الاغترار بالنفس أو بنتائج الظفر والفوز ، تلك الآداب التى أصبحت دروساً للمسلمين فى كل فتوحاتهم ، بل التى صارت قدوة لكل من يريد الفوز والانتصار .

ويتبين اهتمامنا بهذا فى أثناء الكتاب كله ولاسيما فى الفصول الوسطى منه ، وفى الفصل الذى نتحدث فيه خاصة عن « تقدير الموقف » وفى الفصل الذى يليه وعنوانه « أين الحل » ومنهما يتضح — لكل ذى بصيرة — الرباط الذى لم يكن بد منه لأن تتولى قوى خفية من الملائكة أمر هذه المعركة حتى تدول دولة الشرك وأهله بعد أن حشد كل قوته وعدته وماله ورجاله وقد ملأه البطر والكبر والغرور .

وربما كان من الواجب أن نعقد فصولا أخرى فى الكتاب نذكر فيها سير الرجال الذين عاشوا بعد بدر من المسلمين الذين قاتلوا فيها وسير الذين أسلموا من المشركين بعدها ولم يكونوا من الذين كفوا أيديهم عنها ، إلا أن المراجع الكبرى وكتب السير والتاريخ قد تولت ذلك بالتفصيل فأجزأت عنا وخففت من جهدنا .

وقد رأينا إتماماً للفائدة أن نذيل الكتاب بمصورات للحجاز وأماكن السرايا وموقعة بدر وطريق نجد ، وجعلنا نحدد عليه الأماكن التى ذكرتها المراجع ونقيس أبعادها بقدر ما تسنى لنا حتى تكون المصورات أقرب إلى الدقة وأشمل فى النفع .

وإنه لفى النية — إن شاء الله بعونه — أن نتبع هذا البحث ببحث فى المزايا الحربية والسياسية التى ظهرت للنبي صلى الله عليه وسلم فى غزواته كلها وأن نقيسها إلى ما ظهر من البطولات العظمى فى الحروب البشرية لنبين للناس أنه صلى الله عليه وسلم كان أستاذاً للرجالات ومعلماً للبطولات .

هذا ، وأسأل الله أن يجعل كتابى هذا فى أول القرب إليه وأن يرضى عنه القلوب المؤمنة ، ويفيد النفوس المتطلعة .

وهو حسبي ونعم الوكيل .

جمال حماد





النُذُرُ الأُولى

النُّذُرُ الأُولَى

حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ليلة أن هاجر مع صاحبه أبي بكر الصديق رضى الله عنه خرج وهو يتأسف على ترك موطنه ومكان مولده ونشأته وبلد عشيرته وأهله ، فلما تلقاه غار ثور هو وصاحبه ليتواريا عن عيون الكفار حتى يخلو لهما طريق الهجرة ألقى النبي على مكة قبل أن يدخل الغار نظرة مشفقة حزينة ثم قال :

« أنت أحب بلاد الله إلى ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لم أخرج عنك ».

ورأى الله سبحانه مارأى من رسوله وسمع منه ما سمع فأنزل عليه ـ ليسكن قلبه ويسليه ويجرئه على المضى فى طريقه ـ قوله تعالى :

« وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » (١) .

فكان قول الله هذا آخر نذير لقريش عند إخراج الرسول من بلده . أما قبله فلا يستطاع إحصاء النذر إلا لمن تتبع آيات القرآن المكية ورأى آراء الصحابة والمفسرين فيها ليعرف دواعيها وأسباب نزولها والمواعيد التى هى مصبوبة عليها .

---

(١) سورة محمد الآية ١٤ .

غير أن نظرات عابرة على أقوالهم تكشف لمن ينظر فيها على عدد ضخم وفير من هذه النذر ، وتكاد كلها تشير إلى موقعة دنيوية حاسمة متوقعة فى القدر مقبلة — لا محالة — عن قريب . ثم عرف فيما بعد — عن يقين — أن هذه الموقعة الحاسمة لم تكن إلا بدرا ، تلك الموقعة التى سميت فرقاناً وبطشة كبرى فى القرآن العظيم .

ففى سور الفرقان والشعراء والنمل والذاريات والطور والقمر والمزمل والملك والجن وكثير غير هذه من سور القرآن — طوالها ومفصلها وقصارها — ترى نذرا متلاحقة وإن تغير عليها التعبير واختلفت ألفاظ التبيين ، منها ما كان عاماً يشمل المشركين من أهل مكة جميعاً ، ومنها ما كان خاصاً يقصد العتاة والمستكبرين أمثال الوليد بن المغيرة (١) وأبى جهل بن هشام (٢) والنضر ابن الحارث (٣) .

ومع تلاحق هذه النذر وتواليها فى الآيات الصادقة المنزلة على المبعوث الصادق فان كثيراً من أهل مكة لم يتعظوا ولم يرتدعوا بل تمادوا . فسخروا واستهزءوا .

وكانت دلائل النبوة قد بدت منذ اللحظة الأولى ، حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليه نبى فى فترة وجاهلية . وكان أولى بعشيرة النبى وأهل بلده أن يسبقوا إلى الإيمان وأن يعلوا حياة مكة بالإسلام ، وقد رأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم وعلموا من تجاربهم — قبل غيرهم — ما كان عليه محمد من صفات الأنبياء وما كانت عليه روعة آيات القرآن ، ثم ما رأوه من

---

(١) تفسير البيضاوى فى سورة المزمل .
(٢) أسباب النزول بهامش الجلالين جـ ٢ ص ١١٥ .
(٣) سير أعلام النبلاء ص ١ ص ٢٧٩ .

استمساكه صلى الله عليه وسلم بدعوته وعلو أمرها بالذيوع يوما بعد يوم وإقبال العقلاء وذوى الإرادة والمهديين عليها ، ولكن كثيراً منهم ظل يعادى رسول الله ويشتد فى عدائه ويتمادى فى عناده وإيذائه حتى لم يبق من سبيل لهم ولا للنبي إلا أن يفترقوا فى البلد والموطن كما افترقوا فى العبادة والرأى والدين .

ولقد نزلت ببعض أعداء رسول الله قبل أن يهاجر من مكة بلايا وأصابتهم رزايا فمات من مات وعمى من عمى وضل من ضل وافتقر من افتقر

ولقد قال الله للنبي فى هؤلاء «إنا كفيناك المستهزئين»(١) وهم الوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل وعدى بن قيس والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث أهلكهم الله جميعاً كلا منهم بآفة وعذاب (٢) .

ثم كان أقسى ما أصيبوا به من الامتحان والبلاء ما تهيأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أسباب مفارقتهم (٣) وابتعاد رحمة الله عنهم ، ثم لم يرجعوا عن الذهاب وراءه فى البادية وهو مهاجر ليردوه إليهم ، وكانوا قد انتقلوا كل يوم فى معاداته من شدة وعنف إلى ما هو أشد وأعنف حتى بيتوا له نية القتل غدراً فى ليلة الخروج .

وكان هؤلاء الأعداء يهزءون بالنذر ، وكلما هددهم الرسول وأنذرهم بعذاب الله فى الآيات الموحى بها إليه سألوه مستهزئين قائلين : ومتى هذا العذاب ؟ فيجيبهم بقول الله سبحانه « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف (٤) لكم بعض الذى تستعجلون » (٥) .

---

(١) سورة الحجر آية ٩٥ .

(٢) تفسير الآية نفسها فى الجلالين .

(٣) انساب الاشراف جـ ١ ص ١٥٥ .

(٤) كأن النفير بلفظ (ردف) يفيد أن العذاب قد ركب معهم على دوابهم رديفا فهو لاحق بهم لا فرق بين مكانه ومكانهم ولا زمانه وزمانهم ولكنهم عموا وصموا .

(٥) سورة النحل الآيتان ٧٢ ، ٧٣

فلما جد الجد وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أوجسوا منه ومن هجرته ونقلته خيفة ، ومن أجل ذلك طار صوابهم منذ علموا بمبايعة الأنصار له فى العقبة ، ثم بذلوا غاية جهدهم فى رده عن الهجرة ، ولكن الله حفظ رسوله من بغيهم وأحبط كيدهم لينصر دينه ويعلى دعوته على الدين كله ويؤيد رسوله الذى اصطفاه ، ثم لتتحقق النذر التى أوعدهم بها ، وكانت نفوسهم منها فى غفلة وعيونهم عنها فى غطاء .

وليس من ذنب إلا عليهم ، فقد كان جديراً بهم أن يكونوا جميعاً من السابقين إلى الإيمان — وحتى لو كان هذا السبق تأييداً من عصبية للرسول الذى بعث منهم وهم أهل الحمية والعصبية، وكانت قريش كلها معدودة من الحمس(١) ولكن الله — قضاء لأمره ونفاذاً لمشيئته — اختار منهم من اختار ليكونوا فى السعداء وينتظموا فى سلك السابقين الأولين .

ولقد ضرب الله بمكة فى حالها هذا مثلا فقال سبحانه « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (٢) .

ولعله كان على من تأخر إيمانه بالنبى من أهل مكة أن يهاجر إليه كما فعل بعض السعداء من الذين تخلفوا عن السبق منهم ، أو أن يسلم ويكتم إسلامه تقية وسراً كما فعل القليل منهم ، أما من لم يفعل هذا ولا ذاك فقد لحقت به الشقاوة وأطل عليه أجله يناديه ، وهتف به مصرعه ليرتطم فيه .

وانتظم الشقاء فريقين من أهل مكة فأصاب بعضهم شقاء موقوت بدل لهم بسعادة حين قدر لهم أن يسلموا بعد فتح مكة ، وأصاب بعضهم شقاء أبدى

---

(١) الحمس بالحاء أى المتشددون فى الدين والمتعصبون له .
(٢) سورة النحل الآية ١١٢ .

إذ كانوا أكابر أوأصاغر فساقاً ، فوقع بهم وعيد الله ، ورأوا النذر التى كانوا يكذبون بها تنزل بهم فتستأصل شأفتهم وهم لا يستطيعون لها دفعاً ولا رداً .

ولقد أصيب هؤلاء بما هو أشد من الموت هولا وسوءاً — فزيادة عما كانوا عليه من جهالة عمياء لم يروا فيها أفضل من عبادة الأحجار والأوثان — فقد أهلكهم الله إذ لم يرعووا عن الباطل فمزق أكبادهم وفرق أنسابهم ، حتى إن الولد أو الوالد أو الأخ أو القريب ما صار يبالى أن يرد يده أو سيفه ورمحه أو نباله عن حميمه أو أن يكبه الله فى الدمار والنار لو ظل من الأخسرين .

وربما تفاوتت قسوة القلوب على النبى من أولئك الملأ من أهل مكة حتى بلغت أقصاها فى كبرائهم ، ثم بلغت الغاية التى ليس وراءها بعد فى أبى جهل ابن هشام ، ففاقهم جميعاً فى القسوة والجهل والبذاءة والعيب .

ومع أن سلمة بن هشام أخا أبى جهل كان من السابقين الأولين وكان من مهاجرة الحبشة ، ثم أسلم كثير من أهله ، فان أبا جهل ظل على تجبره حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرعون هذه الأمة ، وكانت هذه التسمية نذيراً له بأن يلقى — لا محالة — من البلاء ما أصاب فرعون من الغرق والبلاء .

وكان أبو جهل يزداد قسوة على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالى أن يصيب بهذه القسوة قريباً له أو حميا ولا يبالى بقرابة ولا عصبية ، بل كان يستفحل أذاه بنسبة القرب إليه فهو يشتد على الأقرب له فالأقرب ثم لا يرى بهذا القلب الفظ الجاحد حرمة لأحد من الرجال أو النساء .

حتى إن أخاه سلمة حين رجع إلى مكة من هجرته إلى الحبشة حبسه أبو جهل وحبس معه عياش بن ربيعة ، وكان عياش ابن عم أبى جهل وأخاً له من أمه ، فلم يرحم واحداً منهما ، ولم يرع فيهما حق الأم ولا حقوق الأبوين .

ولم يكن فرعون هذه الأمة قاسياً على من يوقعه القدر فى قبضته وحسب، بل كان رجلا غادراً يبحث عن الغدر ويوقظه ويسعى إليه ، ولقد مضى ذات مرة هو والحارث بن هشام حتى قدما على المدينة فى أواخر عهد النبي بمكة وقبيل أن يهاجر رسول الله ، وكان عياش أخوه لأمه قد هاجر إليها مع عمر ابن الخطاب .

ثم أقبل أبو جهل والحارث على عياش وقالا له : إن أمك قد نذرت أن لايمس رأسها مشط ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق قلب عياش لأمه ، فحذره عمر بن الخطاب من الرجلين وقال له : إنه والله ما يريدونك إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت !

فقال عياش : أبر قسم أمى ، ولى هنالك مال فآخذه .

فقال له عمر : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى عياش إلا أن يذهب معهما ويخرج من المدينة إلى مكة ليبر قسم أمه ويجمع ماله .

فلما رأى عمر منه ذلك ولم يستطع أن يرجعه عنه قال له :

أما إذ فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه فانها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها ، فان رابك من القوم ريب فانج عليها .

وخرج عياش على ناقة عمر معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال أبو جهل لعياش :

يا ابن أخى ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟

فقال عياش : بلى . ثم أناخ راحلته وأناخ أبو جهل والحارث بعيريهما حتّى يتحول أبو جهل معه ، فلما استووا بالأرض انقضا على عياش فأوثقاه وربطاه بالحبال ثم دخلا به مكة نهاراً وهما يصيحان بأهل مكة ويقولان : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا (١) .

فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى إليه خبر هذين الأخوين : سلمة وعياش مع أبي جهل ، وأنهما يحبسان ويعذبان ، فلم يملك لهما رسول الله حينئذ إلا أن يدعو لهما فى القنوت (٢) ويخصهما به ويسأل لها الله حتّى استجاب فنجوا وهاجرا إليه .

ولقد رحم الله عباده جميعاً — ومنهم أهل مكة المعاندون أنفسهم — حين هيأ لرسوله أن يهاجر إلى المدينة وينقل دعوته إليها ، ثم أخذ الدين ينتشر وأمره يعلو ، ثم كان الأمر بالقتال حتّى يذل الباطل للحق ويصدع النور كثائف الظلمات .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٧٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٢٨ .



مشروعية القتال

ردد بعض ذوى النفوس المريضة وأصحاب الغرض من أعداء الإسلام أن الإسلام دين حرب وعنف وغزو وقتال ، وأن استخدامه لهذه الوسائل كان هو السبب فى نشره وسرعة ذيوعه . وجعلوا من غزوات الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ أكبر الحجج لدعم ما ذهبوا إليه من القول الخاطىء والرأى الطائش .

وما من شك لدى من ينصف الإنصاف كله أو بعضه أنه يرى البهتان واضحاً على هذه الدعاوى التى يرددها المغرضون ويروج لها المبطلون حين يلوح له من أول سطر فى الدعوة الإسلامية أنها دعوة خير ورشد لدين شامل يعتمد على الحجة والبرهان ويخاطب ذوى العقول والأفهام ، وأنه لم يتخذ السيف ويشرع القتال إلا دفاعاً مشروعاً عن الخير الذى جاء يدافع عن بقائه ويعمل من أجله لترفل فى نعمته البشرية كلها .

ثم هو يدافع عن الحجة التى أنار بها الطريق ليظل مضيئاً هادياً إلى الخير من حيث لا يبدأ عدواناً ولا يهيج أهل دين سماوى أو يقهرهم على الدخول فيه ما داموا يرضون التعايش السلمى بينهم وبينه ، ذلك التعايش الذى شاع الكلام عنه والاحتيال له فى عصرنا الحديث .

والآية الكريمة التى تقول « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (١)

---

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦

كفيلة أن تمحو كل شبهة وأن تمحق كل عناد إذ هى تنص على الطريقة التى أراد بها الإسلام أن ينتشر وأن يعم وأن يتبعه الناس جميعاً بلا قوة ولا إكراه .

فالآية تدل بجلاء ووضوح على أن هذا الدين وقد ترك للإنسان حرية التفكير فى اختيار دينه ، فانها تمنع – رحمة بالإنسان ذاته – أن يكون أحمق سفيها يطلق لحريته الرعناء أن تختار طريق الضلالة وسبيل التدمير فذكرته بأن أمامه رشداً وغياً ، وقد تبينا وافترقا ، ومن الخير والعقل والاستقامة أن لا تزل الحرية ويفسد الاختيار فيميل الإنسان مع الهوى ويختار الغواية ويقع فى الشبهات ، فاذا مال المرء وغوى كان على الراشدين من بنى جنسه أن يأخذوا بيده – ولو بالقسوة – حتى يهدوه إلى الطريق .

ولم يكن فى الدعوات أرفق وأقوم من هذه الدعوة الرحيمة التى تطلق للإنسان حريته مع الأخذ بيده وإنارة السبيل أمامه ودلالته على الخير والشر حتى يرسل فكره ونور بصيرته لتنكشف له الغاية التى تؤمنه وتسعده .

أما أن يطلق المرء اختياره فى ظلمات الشهوة والعسف فان ذلك لا يدعو إليه عقل مهما كان قليل التنبه ضعيف الأضواء .

بل لو كان هناك من يقول للإنسان : اختر ما شئت وافعل ما أردت فلن يكون عليك إثم مهما فعلت ولن تحاسب على ما جنيت لكان هذا الداعى مفسداً مخرباً ، ولكانت دعوته جديرة بالضرب عليها ،حتى ولو كانت شريعة لرتبة من المخلوقات هى أقل رتبة من مرتبة الإنسان .

ولقد كان أمر الله سبحانه لنبيه الكريم بقوله له « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١) كان هذا الأمر جارياً فى نفس التيار الذى جرت فيه آية الاختيار الرشيد ، إذ أمر الله نبيه أن يخاطب فى الناس ناحيتين :

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥

ناحية العقل الذى تناسبه الحكمة التى أمر النبي أن تكون دعوته بها ليقتنع العقل ويخضع لها . وناحية العاطفة التى تناسبها الموعظة الحسنة حتى لا تنفر الطباع منها وتصد النفوس عنها .

وكلا الناحيتين قد ذكرتهما الآية الأولى فى كلمة « الرشد » فى قوله سبحانه « قد تبين الرشد » ولا يكون الرشد بغير الحكمة والموعظة الحسنة ، وهما جناحان للدعوة الإسلامية لم يهملهما الرسول قط فى قولة من أقواله ولا فعلة من فعاله .

ولم يكتب لدعوة من الدعوات مهما كانت مقبولة لدى العقول والقلوب أن تعم وتنتشر من غير أن يصيبها الأذى ، لأن الناس ألاف عادات ، فاذا وقعوا فى جهالة وألفوها حسبوا النور مغشياً للأبصار فغضوا عنه عيونهم لئلا يروه ، إلا أن دعوات الخير والحق من شأنها أن تصطبر للأذى وتقيم على الضيم حتى تحقق ما جاءت لأجله ، ولو أنها ضاقت ذرعاً بالأذى والضيق لكانت فاقدة لعنصر القوة التى لا بد أن تتدرع به كل دعوة جاءت لتعيش وخلقت لكى تسود .

والدعوة الإسلامية التى كانت أقوى الدعوات وأرشدها ظلت فى مكة ثلاثة عشر عاماً ، يصبر فيها الداعي وأصحابه على الأذى ويقيمون على الضيم وهم ماضون فى طريقهم لا يترددون ولا ينكصون ، ولعلهم وحدهم — حينذاك — فى أرض الله كلها كانوا يرون فى ظلمات التعذيب والاستهزاء والمطاردة أمل المستقبل قريباً مضيئاً ، وكانت قلوبهم أقوى من كل حديد يضربون به ويقيدون فى كبوله كما كانت أرواحهم أعلى من كل نار وحرارة يكوون بها ويسجرون فيها .

وكان الاصطبار من النبي والمؤمنين على الأذى إيقانا ووثوقاً بأن له نهاية يكون بعدها النصر ، وكان تنبيه الله لهم آنا بعد آن بأنه يرى ذلك ويحكم

الأمر له من عوامل تثبيت قلوبهم وزيادة إيمانهم ، وكان من ذلك قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » (١) .

وكان من استطاع من المسلمين أن يحتمى بسلطان أهله استطاع بهذا أن يخفف عن نفسه من العناء والكيد ، ومن لم يستطع فر من العدوان مهاجراً ، ومن لم يجد ما يهاجر به اصطبر على التعذيب والتنكيل .

والنبي نفسه ذاق من الكيد صنوفاً وألواناً . ولكنه مضى محتملا ناهضاً بعبئه مبلغاً رسالته فى قوة عجيبة لا يتناهى لها حد فى الاحتمال . حتى لقد استطاع أن يفيض منها على المستضعفين قوى خارقة جعلوا يحتملون بها ويصبرون ، ثم لا يبالون بالموت إذا جاءهم ، بل به يستبشرون .

وما كان أعظم بلال بن رباح وهو يجر فى حبل يشده صبيان المشركين فى مكة ليعبثوا به حيناً ويصهروه فى حر الرمال حينا ثم يطلبون إليه وهم يهددونه بتشديد العذاب أن يكفر بمحمد ويضيقون عليه الخناق فيستهين بهم وبعذابهم ثم يزعق فيهم قائلا : أحد ... أحد ...

هؤلاء الصبيان الذين حرضوا من آبائهم وجبابرتهم فى ضوضاء العبث والكيد والتلذذ بتعذيب الموالى والضعفاء ، هل كانوا حين ذلك يعلمون بأنهم سيدخلون الإسلام قريباً ، وربما كان منهم فى الغد القريب من يقود جند المسلمين ويغزو فى أطراف الأرض يدعو للدين الذى يعذبون اليوم أتباعه ويرفضون اتباعه ؟

ولم يكن أحد أعظم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمر بأسرة كاملة من المسلمين المستضعفين تعذب فى سبيل الله ، ولا يرضى فرد واحد منها

---

(١) سورة الطور

أن يطيع معذبيه فى كلمة تشفى نفوسهم من دين الله أو رسول الله ، ثم يقول النبي لأصحابه هؤلاء « اصبروا آل ياسر ، موعدكم الجنة » (١) .

أسرة ياسر بن عمار : كانت من ياسر بن عمار الأب وسمية الأم وعمار ابن ياسر ابنهما ، كانوا قد أسلموا اختياراً وبداراً ، ولو كان الاختيار الصحيح قريناً للشهوة والتنعم لاختاروا الكفر وأصبح عمار الصبى الناشىء أحد هؤلاء الغلمان الذين يشدون غيرهم فى الحبال إلى العبث والرمضاء ، ولكن الصبى — مع والديه — أضاء له الحق وبانت له الحكمة وسمع من الرسول الموعظة الحسنة فاختار الرشد على الغى من غير إكراه ، وكان الرشد الذى اختاره قاسياً مهلكاً ، ولكنه لم يرجع عنه مخافة قسوته وإهلاكه لأنه رآه وحده طريق النجاة .

واستشهدت أمه سمية من طعنة خبيثة سددها إليها أبو جهل بن هشام فقدر لها أن تفوز من بين جميع الرجال والنساء بأن كانت أول شهيد فى الإسلام . ثم استشهد أبوه ياسر ، وظل عمار يخوض غمارا بعد غمار حتى قتلته الفئة الباغية كما أنبأه رسول الله (٢) .

* * *

ثم لاحت معالم التغيير لهذا الموقف الصابر منذ بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ، ثم تبدل الموقف كله عقب هجرة النبي إلى المدينة وبعد أن دخلت الأوس والخزرج فى مبايعة النبي على كل ما يريده منهم الإسلام بغير جزاء دنيوى إلا الجنة .

ثم أخذت كفة الإسلام ترجح فلا ترضى ذلة ولا هواناً ، ولا تسيغ أذى

---

(١) الاصابة ج ١ ص ٥٠٥ .
(٢) المرجع نفسه ص ٥٠٦ .

ولا عدواناً ، ثم تم الأمر حين أيد الله المسلمين بأن أذن لهم أن يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم وأموالهم إذا ظلموا ، ووعدهم الله أن يغلبوا إذا لم يكونوا من المعتدين ، وذلك حين قال سبحانه : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » (١) .

وكان هذا الإذن من السماء بأن يقاتل المسلمون ظالميهم إنصافاً ورحمة . بل لقد عم إذن السماء فكان إذناً لكل من ظلم وتحققت أركان ظلمه ولم يجد وسيلة أخرى غير القتال تنصفه وترد له حقه ، وفيه الوعد الحق بنصرة المظلوم ومعونة القدرة الإلهية له ليحصل على نصره ، وهو أمر لا نراه فى حادثة بذاتها ، بل إنه ليكاد يكون قاعدة مقررة لتسود عدالة الله وتتحقق رحمته وتمضى سنته ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وبهذا الإذن من السماء — لواقع العدالة والرحمة — ارتفعت روح المسلمين فى المدينة وبين الطرداء المهاجرين إلى الحبشة والراكبين لأول مرة لجة البحر المخيف ، وبين المستضعفين الباقين فى مكة ، لأن أمرا بالقصاص العادل ممن ظلموهم قد لاح أفقه واتضحت معالمه وبنوده .

وبعثت الآية فى المسلمين فكرة الإعداد للقتال والاستعداد للجهاد . ثم كان أمراً مفروغاً منه أن يعتقد أهل المدينة القدماء والجدد أو الأنصار والمهاجرون أنهم سيلقون كيداً من داخل المدينة من المنافقين من اليهود وكيدا من خارجها ولا سيما من أهل مكة ، فكان عليهم أن يستعدوا لدفع الكيدين من الداخل والخارج ، فى حين تتوالى عليهم تعاليم الدين الجديد لتنمو بمجتمعهم فى مختلف الشئون .

---

(١) سورة الحج الآية ٣٩ .

وحيث يدفع كيد النفاق أو الدس بالسياسة والتأديب والمقاطعة والعقاب فانه لا يمكن دفع العدوان بالقتال إلا بقتال مثله ، فكان لا بد أن تنزل فيه آية للقتال ، وقد أصبح فرضاً على المسلمين فيه آداب تفرض وحدود توضع حتى لا يخرج المسلمون به إلى انخداع وغرور أو إلى بغى وعدوان .

وانظر إلى الإذن فى أوله تجده إذناً لمجرد الدفاع عن نفس الجماعة الإسلامية ومالها ، وليس فرضاً حتماً مع إطباق العرب واليهود على المسلمين من داخل المدينة وخارجها ، ثم انظر إلى الأمر بالقتال حين اشتد الأمر بالمسلمين ففرضه الله عليهم ليلقوا به من قاتلهم دون من لم يتعرض لهم بقتال ، وذلك حين أنزل الله سبحانه وتعالى قوله : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (١) .

وهكذا كان القتال محرماً ثم صار مأذوناً به ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال والعدوان ثم مأموراً به لملاقاة المشركين . (٢)

ولم يكن بد هكذا من أن تشرع الحرب ، أو بالأحرى يشرع الاستعداد لها ، ولم يكن الداعى إليه رغبة من الدين أن يعلو أو شهوة من المسلمين أن يغلبوا ويستعلوا ، ولكن لأن أعداءهما بدءوا الكيد والدس والأذى ، ثم هم لن يتركوا كل ذلك ، بل لن يدعوا قتال المسلمين ليردوهم عن دينهم إن استطاعوا ، وكان الأمر كما نبه الله سبحانه إليه فى قوله « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » (٣) .

وإذا كان طبع العدو ذلك فلا أقل من أن يقابل بمثل ما ينوى وما يفعل ،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

ثم يكون القتال فى جانب العقيدة والحق أولى منه فى جانب الكفر والباطل ، وهذا ما فعله الرسول وفعله أصحابه ثم فعله المسلمون .

وكان لا بد أيضاً من أن توضع آداب للسلوك إبان الحرب وبعد أن تضع الحرب أوزارها ، وذلك بالنسبة للمحاربين من المسلمين ومعاملة المقهورين من الأعداء ، لئلا تمضى الحرب إلى التدمير والغلواء التى رأينا حروب اليوم قد مضت إليهما مع ادعاء الناس أنهم ارتقوا فى الإنسانية درجات ودرجات .

وكان من هذه القواعد أن يلقى المسلمون السلاح ويكفوا عن القتال متى كف العدو عنه وألقى سلاحه ، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (١) وفى قوله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٢) .

وكذلك سايرت فريضة الجهاد فطرة الناس طرداً وعكساً ، أما طرداً فانها لم تجرد أصحاب العقائد والآراء والحقوق من التسلح لها والتقوى لنصرتها وإذاعتها . وأما عكساً فانها لم تدع من حق خصومها أن يتركوا حتى يعتدوا على العقائد ويعقلوا الآراء وينتهبوا الحقوق ، بل شرعت أن يقاتلوا حتى يسود الحق وتصان الحرمات ويحتمى الضعفاء .

وقد أدب القرآن مقاتلة المسلمين بقوله « ولا تعتدوا » حتى لا يجاوزوا العدل فى أثناء الحرب ، التى تستشرى فيها النفوس .

وأدب النبي مقاتلة المسلمين بأدب القرآن فقال صلى الله عليه وسلم « لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صغيراً ولا امرأة » .

---

(١) سورة النساء الآية ٩٠

(٢) سورة الأنفال الآية ٦١ .

وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم فى أهل مكة بعد فتحها أكبر مثل فى الرفق فى الفتح حتى ولو كان عنوة ، وأعظم آية فى التحذير وفى العفو بعد الانتصار.

وقد تبع النبي فى التأدب بأدب الحرب أصحابه من القادة والجند جميعاً ، فأوصى أبو بكر رضى الله عنه جنده يبصرهم بسياسة الحرب ومن ذلك وصيته ليزيد بن أبى سفيان (١) ومثله ما كتب عمر بن الخطاب إلى أهل الردة — وكانوا أشد من نكب بهم الإسلام بعد اجتماعه :

« وإنى أنفذت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك » (٢) .

ولقد كانت هذه الآداب أولى بالاتباع لو أن القتال نشب بين فئتين من المسلمين ، ونرى ذلك فى مثل وصية على بن أبى طالب لجنده فى حرب الجمل إذ يقول :

« ألا لا يجهز على جريح ولا يتبع مول ولا يطعن فى وجه مدبر ولا يقتل أسير ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن » (٣) .

ولا يستطاع — فى مثل كتابنا هذا — أن تحصى آيات الكتاب ولا أحاديث النبي فى تعاليم القتال ومراعاة الحقوق الإنسانية والحفاظ على آثار المدنية التى يلغتها الأرض من المصانع والزروع والأملاك والأموال فانه شىء كثير .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٩ .

(٢) مختارات من الخطب ص ١٦٦ .

(٣) جعفر بن محمد ص ٩ .

ولم يكن ذلك كله إلا لتنحصر الغاية فى نطاق نصرة الحق وإعزاز كلمة الله وإن كان ذلك يستوجب أحياناً غيظ العدو والغلظة عليه حتى ينكسر أنفه ويندفع كيده ويزهق باطله ، وحتى يمهد للحق ويتسنى له أن يسود وللخير أن يعم الناس .

وقتال المسلمين لم يكن قط قصداً لمغنم مادى ولا للعجلة إليه لو سنحت الفرصة لجندى أو لجماعة من الجند أن ينهبوا مما تصل إليه أيديهم من الغنائم . ومن أجل ذلك عاقب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الغلول ، وهو أن يستولى أحد من الجند على بعض الغنائم بغير حق ، بل إن القرآن نهى عنه فى قوله تعالى « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » (١) . ولم يكن هذا تحريماً على الجند وحسب بل كان نهياً للنبي وتحريماً عليه أيضاً ، وذلك حيث يقول الله سبحانه « وما كان لنبي أن يغل » (٢) .

ولقد كانت عاقبة القتال فى أحد ما عرف من الهزيمة حين استعجلت طائفه من المسلمين الغنائم فأسرعت إليها وتركت مواقعها التى أمر رسول الله بالتزامها والثبات عندها .

وفى داخل الدائرة الضيقة من مشروعية القتال فى الإسلام يتجهز المسلمون ويعد المقاتلون أنفسهم لا طمعاً فى غنيمة ولا غلبة ، بل ربما استوى عندهم الفوز والاستشهاد — من حيث لا يكون لفرد منهم عائدة من الفوز والانتصار أو تكون عليه وحده وطأة الانكسار والموت — وكان الاستشهاد أفضل لو أنهم طلبوا الآخرة وباعوا من أجلها الدنيا بيعاً عاجلا سريعاً .

وكان ذلك من المسلمين طاعة خالصة لقوله تعالى : « فليقاتل فى سبيل

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦١ .

(٢) السورة السابقة والآية نفسها .

الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » (١) ولقوله سبحانه : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (٢) .

والآيات والأحاديث الواردة فى فضل الشهداء كثيرة العدد نكتفى بأن نشير منها إلى فضلهم بآيتين وحديثين :

أما الآيتان فقوله تعالى : « والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم » (٣) وقوله « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » (٤)

وأما الحديثان فقوله صلى الله عليه وسلم « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة من بنى آدم وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول الثلاثة الذين يدخلون الجنة فالشهيد — ثم أكمل الحديث — (٥) » ثم قوله صلى الله عليه وسلم « إن الشهيد لا يجد مس القتل إلا كما يجد أحدكم القرصة يقرصها » (٦) .

وحتى الجرح الذى يجرحه المقاتل فى سبيل الله لا يضيع ثوابه ، بل يجازى عليه أحسن الجزاء ، وقد قال فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى

---

(١) سورة النساء الآية ٧٤ .

(٢) سورة التوبة الآية ١١١ .

(٣) سورة محمد الآية ٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٩

(٥) لباب الآداب ص ١٥٦ .

(٦) المرجع نفسه ص ١٦١ .

نفسى بيده لا يكلم أحد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم فى سبيله ، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دماً : اللون لون الدم والريح ريح المسك » (١) .

وفى الترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين — أو أثرين — قطرة دمعة من خشية الله ،وقطرة دم تراق فى سبيل الله »(٢) .

وهل نستطيع اليوم أن نقيس على ذلك فنقول : إن لمن يتبرع من دمه حظاً من هذا الحديث لو كان تبرعه لصالح المسلمين ؟ ولو أن هذا التبرع لا يؤذيه — أظننا لانبعد عن الصواب لو ظننا ذلك ورجونا للمتبرعين بدمائهم أكبر الثواب .

ثم لايخفى أن الجهاد فرض على المسلمين جميعاً باللسان والمال واليد والنفس . وعلى كل مسلم أن يجاهد من قبله وثغره بالنوع الذى يطيقه من هذه الأسلحة (٣) متى استطاع أو متى طلبت منه المعركة مع العدو النوع الذى يحتاجه المسلمون كى ينتصروا . وهذا الفرض قد جاء به قوله تعالى « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » (٤) .

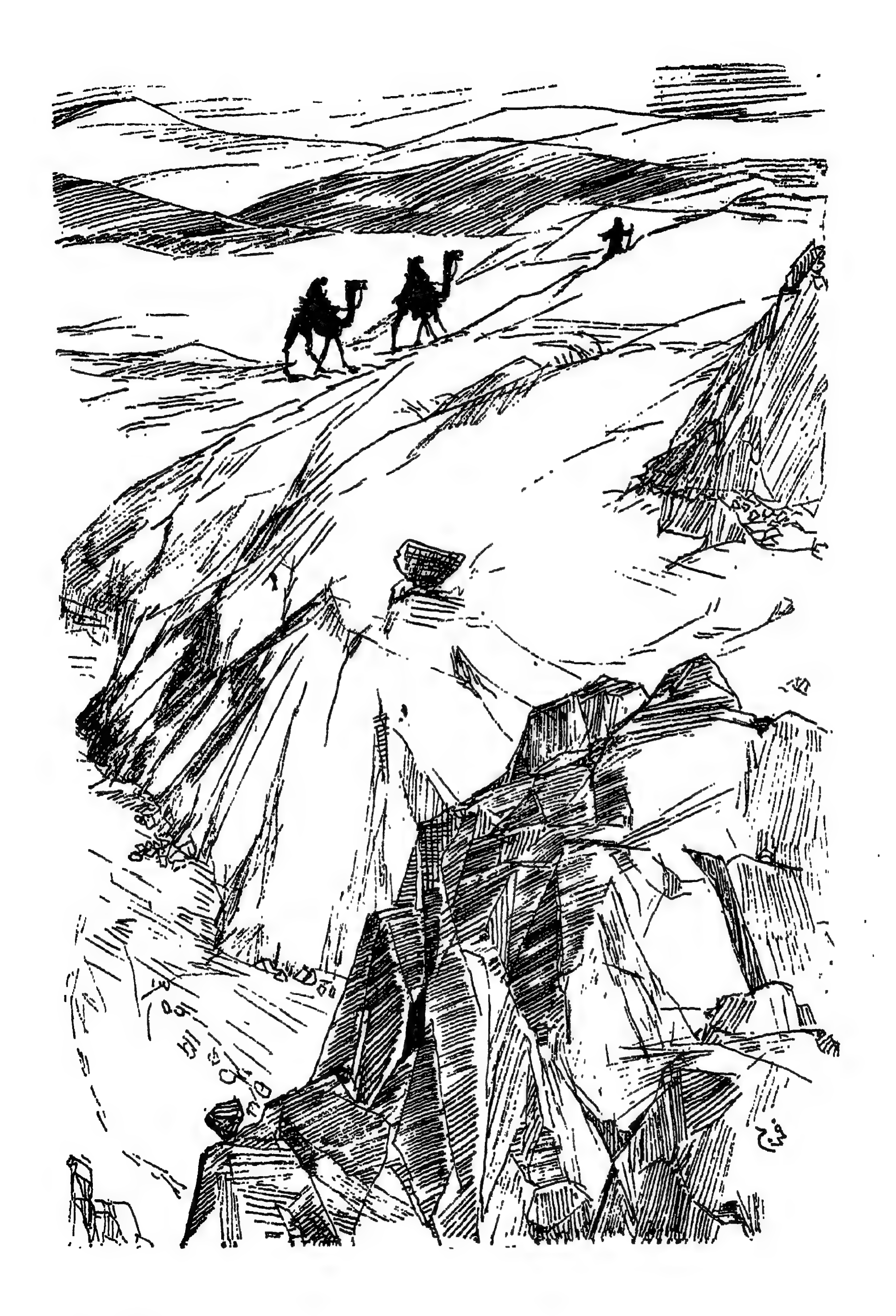
---

(١) صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٩ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٦٢ .

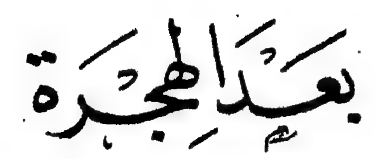
(٣) المرجع السابق نفسه جـ ٢ ص ٥٨ .

(٤) سورة التوبة الآية ٤١ .



بعد الهجرة





بعد الهجرة

من الحق أن يقال إن الرسول الكريم لم يكن يقصد من هجرته إلى المدينة غير أمرين اثنين — وربما كان ذلك على طريق الحصر فى أول أن هاجر :

أولهما أنه يبتعد هو وأصحابه — ولا سيما الضعفاء منهم — عن الأذى والاضطهاد الذى أصابه وأصابهم من قوم لم يبد أن عداوتهم ستنتهى إلى حد تقف عنده ، لأن قريشاً ماضية فى كفرانها ، والرسول عليه الصلاة والسلام دائب فى دعوته . وقريش تضيف إلى الأذى كل يوم لوناً جديداً ، كما أنه صلى الله عليه وسلم مضيف إلى دعوته كل يوم جديداً من الفروض والتعاليم .

بل لقد مضت عداوة قريش إلى أقصى ما تبلغ إليه العداوات — كما قلنا من قبل — فأرادت قتل النبى غدراً وحرضت عليه ثم مضت تعمل له صراحة وانكشافاً وخرجت إليه ، حتى كانت ليلة الهجرة ، فانحطم أكثر ما أعدته قريش وتبدد ما جمعت له .

وثانى الأمرين من قصد الهجرة أن يتاح للدعوة الإسلامية موطن أكثر حرية وتمكيناً لها وإفساحاً للإقبال عليها ، من حيث يجد الداعى وأصحابه ظلا من الأمن والسلامة يقيمون فيه شعائرهم ويشيدون أركان دينهم الذى قضى الله أن يستقيم عوده ويتم بناؤه فى مدينة الأنصار .

وما لابد منه أن لا ينتهى أمر مكة بخروج النبى منها ، بل إنه ليكونن أشد وأقوى ، إذ ليس من بلد يجب أن يصطلى بنار هذه الدعوة ويحترق فى لهيبها أكثر من مكة لأنها العدو الأول لها ، ولأنها لم تدع من سبيل لإيذاء أتباعها من أقوياء وضعفاء ، حتى صاحب الدعوة ذاته الذى كان السيف قد أرهف عليه ليؤخذ خلسة وغدراً ، ثم صراحة وبياناً .

وأمر آخر أشد هولا على طلاب الدنيا من أهل مكة : ذلك أن المدينة فى طريق التجارة إلى الشام وهو أكبر الطرق ربحاً وكسباً . وثانى الطريقين إلى اليمن . وعلى هذين الطريقين يبنى كل اقتصاد مكة وحركة المال فيها .

أما ثالث هذه الطرق فهو الطريق إلى العراق ، وهو أبعدها وأصعبها وأقلها ماء وأشقها سيراً ، ولعل قريشاً لم تكن قد سلكته أو مهدته كالطريقين الآخرين .

ولا مناص حين يفكر الإنسان كأهل مكة — حينئذ — أن يلتبس بعقلية جاهلية ، وهى إما حب العدوان لذاته أو التغلب الماحق المتمادى للإبقاء على الرزق والعيش ، ومن أجل هذين قامت أيام العرب فى الجاهلية وكانت العصبية أول عامل فيها .

فهل يستطيع أحد أن ينفى عن أهل مكة أنهم لن يفكروا فى أن يزيلوا هذه العقبة التى قامت مستعرضة فى الطريق ، على أن يبذلوا فى إزالتها كل ما أمكنهم من الوسائل ، وحتى لو اضطرهم الأمر إلى الزحف بأسلحتهم إليها ؟

أظنه لا يستطيع أحد أن ينفى ذلك ، وأن لا يؤكد أن الإسلام ظل مهددا على الدوام ومكة فى طريقه أكثر من تهديد المدينة لطريق قريش فى تجارتها . وقد ثبت ذلك ثبوتاً قاطعاً بحوادث متعددة منها ما كان فردياً ومنها ما كان جماعياً :

أما الفردية فمنها ما روى عن ابن مسعود قال :

انطلق سعد بن معاذ معتمراً فنزل على أمية بن خلف ، وكان إذا أمية انطلق إلى الشام يمر بالمدينة فينزل عليه ، فقال أمية له : انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس طفت .

فبينا سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل فقال : من هذا الذى يطوف آمناً ؟ قال : أنا سعد ، فقال : أتطوف آمناً وقد آويتم محمدا وأصحابه ؟ قال : نعم . فتلاحيا ، فقال أمية : لا ترفع صوتك على أبى الحكم - أى أبى جهل - فانه سيد أهل الوادى .

فقال سعد : والله لو منعتنى من الطواف لقطعت عليك متجرك بالشام . قال : فجعل أمية يقول : لا ترفع صوتك . فغضب سعد وقال : دعنا منك ، فانى سمعت محمداً صلى الله عليه وسلم يقول : يزعم أنه قاتلك ! قال أمية : إياى ؟ فقال له : نعم ، والله ما يكذب محمد !

فرجع أمية إلى امرأته فقال : أما تعلمين ما قال لى أخى اليثربى ؟ زعم أنه سمع محمدا يزعم أنه قاتلى . فقالت له امرأته : والله ما يكذب محمد (١) .

وأما الحوادث الجماعية فمنها ما فعلته قريش إذ جعلت تحرض العرب كافة على النبى ، ثم زحفت إلى بدر لقتاله دون أن تنذره حتى بعد سلامة تجارتهم الشامية ، ثم حاولت - فيما بعد - غزو المدينة فى وقعة الأحزاب ، ثم ارتد منها من ارتد عن الإسلام بعد أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

وكان على أهل مكة أن يضاعفوا الاستعداد بعد أن علموا شروط بيعة الأنصار للنبى فى العقبة الأولى (٢) ، ثم كان عليهم أن يفزعوا كل الفزع ولا

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ١ ص٢٠٣ وستأتى بقية هذه القصة بعد • حيث يتحقق مقتل أمية ويصدق محمد •

(٢) انظر شروط البيعة فى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٥٤ •

يذوقوا هدأة لجنوبهم بعد العمل الرائع الذى أقدم عليه النبي فى المدينة والذى حقق به وحدة دينية بين أهلها من جهة ، وبينهم وبين المهاجرين من جهة أخرى .

وتكتلت المدينة بأسرها فى إخاء لم يحدث له مثيل بين أى جماعة من جماعات الناس ، وأمكن للنبي بما صنع من الإخاء أن يزيل الخلافات فى مجتمعه الجديد، وأن يجعل منه منفذاً وعيوناً ورقباء على الدس والنفاق،وأن يقيم منه حصناً يحمى المدينة من أى عدوان .

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن هذا الإخاء كان إخاء مؤقتاً حتى يستقر أمر الإسلام ويكثر أهله فيعود الأمر إلى طبيعة الناس وفطرتهم ، أى يعود إلى إخاء الدم والقربى والدين معاً ، وقد حدث ذلك فنسخ هذا الإخاء بعد بدر بقوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المهاجرين والأنصار » (١) .

آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وآخى بينهم على الحق والمواساة ، وأن يتوارثوا فيما بينهم بعد الممات دون ذوى الأرحام ــ وكانت قد تقطعت فى مكة ــ ثم انعقدت أواصر هذا الإخاء بين تسعين رجلا أو مائة ، خمسة وأربعون من المهاجرين ومثلهم من الأنصار ، أو خمسون من كل منهما . وتحالف الناس عليه فى دار أنس .

ولقد ظل هذا الإخاء منذ عقده النبي بعد هجرته إلى المدينة حتى نسخ بعد بدر فرجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذووه مع ضرورة اتفاقهم فى الدين (٢) .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٥ وسورة الأحزاب الآية ٦ . ومن حضارة الاسلام ج ١ فى تجربة الأخاء ص ٤٢ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٣٨ .

وبميثاق الإخاء لم يكن لأحد أن يستطيع ولم يكن لقوة أن تفكر فى أن تكون فى هذه الجماعة المتراصة كالبنيان ثغرة يدخل منها ، لا من خارج المدينة ولا من داخلها .

وكان على يهود المدينة بل على يهود الجزيرة كلها — أن يؤمنوا بهذه الرسالة لأنهم مدعوون مثل سواهم بل قبل غيرهم إليها لأن التوراة بشرت بمحمد رسولا كما بشر الإنجيل .

غير أن استعلاء اليهود والغطرسة التى كانوا عليها جعلتهم يأنفون من أن يسلموا — غير قليل منهم قدرت لهم السعادة فاهتدوا إلى الإيمان ، وجماعة آخرين منهم تعوذوا بالإسلام وهم يبطنون الكفر — وكان الرسول أعلم بحقد أولئك ونفاق هؤلاء ، فرأى بصائب رأيه أن يهادنهم ليستطيع فى فترة المهادنة أن يشيد بناءه ويقوى أركانه ، وحتى يترك لليهود أملا وفرصة يزولون فيهما عن جحودهم واستكبارهم . ثم يتفرغ النبى فى أثناء ذلك لعدوه الأول من قريش ، فربما غدا على المدينة من قريب يغزوها بخيله ورجله ، فلا تجد الدعوة الإسلامية حصناً منيعاً تحتمى به من الداخل والخارج إذا أطبق عليها الأعداء .

وكان العقد مع يهود المدينة أن يلتزموا جانب الحياد (١) . وكانت المصالحة مع بنى النضير منهم على أن لا يكونوا له أو عليه (٢) ، فاستطاعت المدينة كلها — فى ظاهر الأمر — أن تكون وحدة لدفع أي عدوان أو الخلاص منه دون انتقاض العهد وانقضاض البناء (٣) .

ولم تكن بيعة العقبة الأولى قد تعرضت لفكر من عدوان خارجى على

---

(١) جوامع السيرة ص ٩٩ .

(٢) تفسير البيضاوى فى أول سورة الحشر .

(٣) سنعود مرة أخرى الى هذا العقد عند الكلام على نتائج وقعة بدر .

المدينة ، بل كانت كلها شروطاً — كما تقدمت الإشارة إليها — فى عمل دفاعى ضد كل من يعتدى على النبي وأصحابه ودينه يتولاه الأنصار من الآباء والأبناء والذرارى .

وربما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمل فى أن يسلم أهل مكة مهما طال بهم أمد العناد وزمن الشرك . ومن هنا يستطيع المفكر أن ينفى عن الرسول الكريم نية العدوان ، ويؤكد أن كل ما فعله من استعداد إنما كان لتأمين المدينة وإرخاء جو من السلام عليها ، وفى ظل هذا السلام يمكن للدعوة الإسلامية أن تستمكن وأن تنطلق منها لكل أنحاء العالم أنوار وأضواء .

ولكن لم تكن هذه كل الصورة التى تتضح فيها كل الظلال ، ولم تكن هذه هى ألوانها وحسب ، وإنما كانت هناك ظلال أخرى وألوان .

فالمهاجرون مع النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا من أهلهم وأموالهم وديارهم فباتوا فى مناخ جديد ، وبات من بقى من أهلهم فى مكة عرضة لعذاب أشد واضطهاد أكبر ، ثم نهبت الأموال التى تركوها واحتلت الديار التى خرجوا عنها .

والكعبة والبلد الحرام وهما ما هما من التقديس والإجلال أصبحا موطوءين بالكفر والأصنام والعناد والظلم ، وكأن قريشاً بدت منتصرة كل الانتصار باخراج المسلمين ومتطاولة عليهم . وكأنما لن يتاح لأحد من المسلمين المهاجرين أن يفكر فى العودة إلى بلده وأهله أو استرداد منزلة وماله .

فلا أقل من أن يحس هؤلاء الطاغون المعاندون أن مصالحهم الدنيوية الأولى قد أصبحت فى غير مأمن ، وأنها أصبحت فى ضمان أهل المدينة إذ هم على طريق الشام ، وأنهم لن ينجوا من التهديد إلا إذا نزلوا عن الغى الذى هم متمادون فيه .

ومن الحق أن أهل مكة قد أحسوا ذلك وحسبوا له ألف حساب – كما يقال – وغمرهم الشعور به منذ أول هجرة النبي إلى المدينة وفكروا فيه طويلا ، بل شعروا به منذ عقد النبي مع الأنصار شروط نصرته فى بيعة العقبة الأولى .

وقد حدث أن هدد سعد بن معاذ صديقه أمية بن خلف تهديداً صريحا – كما أوردنا قصته من قبل – ولذلك فقد أخذ أهل مكة يسيرون عيراتهم إلى الشام أكثر حرسا وأوفر عمالا وأشمل بضاعة وأموالا وأقوى قيادة وأحنك دربة على ابتداع الحيل وسلوك الطريق .

ولم يكن من شأن النبي صلى الله عليه وسلم أن يفكر فى الانتقام من أهل مكة كما فعلوا وما نهبوا وما احتلوا من الديار وباعوا من العقار ، وإلا لعاقبهم به حين فتح مكة – فيما بعد – ولم يطلقهم أحراراً ، ولكنه كان يريد أن يسلموا ، ولابأس إن هم آمنوا أن يذهبوا بكل ما غنموه ، وأن يغتفر لهم كل ذنب ارتكبوه .

فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أراد – الآن – أن يحسوا بقوة المدينة فانه لم يرد غير أن يخففوا من العناد والغلواء ، أو أن يقبلوا على الطاعة ويدخلوا فى الدين – وذلك خير لهم لو علموا – ولو قد فعلوا ذلك لما فكر النبي الذى أرسله الله رحمة للعالمين أن يضر أقرب الناس إليه أو ينتزع من يد أى واحد منهم شروى نقير .



خروج السرايا

وبعد ثمانية أشهر من الهجرة لما أن تم للنبي عليه الصلاة والسلام توحيد المدينة ومعاهدة اليهود على المسالمة بدأ عليه الصلاة والسلام فى تنفيذ خطته التى كان لا بد له من أن يسير عليها ، وهى أن يشعر قريشاً بقوته أكثر من أن تشعر بأن مصالحها فى التجارة قد أصبحت مهددة ، لأن الأصل الذى يهتم به لحماية الدعوة أن يعمل جاهداً لحماية المدينة من كل جهاتها ، ولا يكون ذلك إلا بحماية طرقها ومسالكها فى أى اتجاه ، وعلى مدى بعيد لئلا تؤخذ على غرة ، ولئلا تمتد خيوط الدسائس من اليهود إلى الأعراب المجاورين .

وقد بدأ النبي العمل باخراج (دورياته) المسلحة — كما نسميها نحن — والتى عرفت فى أيامه باسم السرايا (١) ، رامياً من إخراجها إلى جملة أهداف نبينها فيما يلى :

فالهدف الأول : إشعار قريش بما صار للإسلام من قوة فى المدينة ، وأن على قريش أن تخفف من عداوتها للإسلام وأن ترفع يد الإرهاب عن المسلمين الباقين فى مكة ، إذ صار فى استطاعة المسلمين فى المدينة أن يقتصوا من

---

(١) السرايا : جمع سرية بفتح فكسر مع ياء مشددة ، وهى مالم يخرج فيها رسول الله أو خرج ولم يحارب . أما التى خرج فيها وحارب فتسمى الغزوات .

آهل مكة بأن يقطعوا عليهم طريق القوافل بينهم وبين الشام وهى أهم طريق .

ومن ثم يمكن للمسلمين أن يقضوا على قوة مكة الاقتصادية التى كانت أول الأسباب فى طغيانها وجحود أهلها . ومن غير ما شك فان قريشاً ستفكر جدياً — لو فكرت فى سداد — فى أن تغير من خطتها فى العداوة والعناد وتعمل على التفاهم مع المسلمين طائعة راضية أو كارهة مقهورة .

وأهم من ذلك أن قريشاً حين تطمع فى هذا التفاهم يجب أن تعرف جيد المعرفة أن المسلمين لن يرضوا بأى اتفاق ما لم تترك لهم مكة حرية الدعوة إلى الدين وتمتنع عن خطتها التى سارت عليها فى تأليب العرب على الرسول .

وسلامة التجارة وطريق القوافل فى نظر أهل مكة أمر حياة أو موت ، فمكة لا تعيش إلا على التجارة لأنها واد غير ذى زرع ، فما لم تسلم لها وتأمن عليها فى الطريق — ولا سيا طريق الشام — فان بقاءها واقتصادها مهدد — لا محالة — بالانهيار والموت .

والهدف الثانى: أن يحكم النبي عليه الصلاة والسلام الخطة ويتهيأ للزمن والمستقبل ، ومن أجل ذلك رغب فى أن يعقد المحالفات والموادعات بينه وبين القبائل التى تضرب مساكنها وخيامها حول المدينة ولا سيا القبائل التى تسكن المنطقة الغربية من المدينة بينها وبين شاطىء البحر الأحمر حتى يتم لها تأمين الطريق الشامى ويستحكم أمره فيه ، فلا يبقى هناك من سبيل لعبور قوافل قريش إلا وهى تحسب للمدينة حسابها الذى كان ساقطاً فى نظرها من قبل ، لأن أهل المدينة لم يحاولوا من قبل أن يسابقوا قريشاً فى تجارتها واكتفوا بالزرع والغرس ، أما الآن فربما أرغمها الأمر لعقد محالفة مع النبي صلى الله عليه وسلم وأنفها راغم .

والهدف الثالث : إيقاع الرعب فى قلوب يهود المدينة وغيرهم من اليهود الذين يضربون حول المدينة من قرب ومن بعد ، وهؤلاء وأولئك لم يهدءوا قط

أو يناموا عن الدس للنبي والكيد له بكل ما استطاعوا من السبل وصنعوا من الحيل ، وكل ما اقتدروا عليه من الوسائل منذ قدم إلى المدينة .

ولقد كانوا يفلحون أحياناً فى إيقاظ الفتن وتأريث نيران العداوة بين الأوس والخزرج ليدمروا قوة الوحدة ، التى بناها النبي صلى الله عليه وسلم وشد أزرها بالإخاء الذى عقده بين المسلمين .

وكان بين الأوس والخزرج فى الجاهلية عداوات وثارات — تحفل بها كتب السيرة — ولم يكن الناس قد استأصلت فيهم روح الإسلام وآدابه ، وكان اليهود يعرفون ذلك فيعملون فى الدسائس المتلاحقة حتى لا تستأصل فى الأنصار خاصة روح المودة وروابط الإخاء .

والهدف الرابع : أنه لم يعد خفياً على النبي وقيادته الحكيمة أن إخراج السرايا كفيل بأن يرفع من الروح المعنوى للمسلمين ويشعرهم بقوتهم ، ثم يزيدهم إقبالا على التأهب النفسى والاستعداد للقتال .

ومن اليسير أن يدرك أن ركون الناس إلى الدعة والأمن يكون غفلة منهم وسبيلا إلى فساد نفوسهم واستسلامهم للخذلان ، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يدفع عن المدينة ركونها إلى الدعة واستنامتها للأمان ، فأخذ يجهز السرية بعد السرية ، ويعد الفتيان لتحمل الأعباء التى كان يراها قادمة لا محالة ليحملها المسلمون من قريب ، ففتح أمام الشباب باب الفتوة على مصراعيه للتهذيب والتدريب .

ولقد اتضح من السيرة التى اتبعتها هذه السرايا أن أعمالها لم تخرج قط عن دائرة الاستطلاع ، أى أنها فى منطوق الفن العسكرى الحديث ومفهومه لم تكن سوى (دوريات) استطلاعية ، ولم تكن حملات وطلائع تبعث للحرب والقتال .

وليس أدل على ذلك من أنها تجنبت فى حذر بالغ أن تشتبك فى شجار مسلح ،

ولا سيما مع القوافل القرشية صغيرها وكبيرها مهما التقت فى هذه القوافل بأعداء كان لهم من قبل جرائم كبرى وآثام .

ولقد كان ضبط النفس إلى هذا الحد العجيب يكاد يكون أمراً فريداً فى بابه من أصحاب محمد والخاضعين لأوامره ، فى حين يكون هذا أمراً متعذراً صعباً على كل من يتاح له أن يعترض طريق عدوه ويتحكم فيه بسبب ظروفه المواتية كل التحكم ، فاذا شاء أن يعترض فيه شيئاً اعترضه فى يسر وسهولة وإذا قوتل فيه ضمن لنفسه الغلبة على من يقاتله لمعرفته به وقرب أمداده منه .

ولكن هذه السرايا كانت تحت مراقبة مشددة من الرسول — كما قلنا — وعليها أن تنفذ ما قد أمرها به قائدها — فى خضوع تام — من تجنب الاشتباك فى أى قتال .

وربما كانت الأعداد الضئيلة التى تتكون منها بعض السرايا قد قصد إليها النبي لينفى عنها أن تتهم بأى نيات عدوانية ، بل ويجردها من القوة التى تجرئها على العدوان إذا قصدت إليه وهيأت لها الظروف .

على أن قوافل قريش — كما قلنا من قبل — قد أخذت بعد هجرة النبي إلى المدينة تتجمع صغارها أو لا تخرج من مكة حتى تصير عيزات جامعة لعدد من التجار والسادات وعامة الناس ، ثم جعلت تسير تحت حراسة مشددة قوية ، وجعلوا يجندون لهذه الحراسة عدداً كبيراً من رجال القبائل الحذرين المدربين .

وحتى يعفى أهل المدينة الأنصار من أية تهمة توجه إليهم فى أمر هذه السرايا فقد كانت فى أولها خالصة من المهاجرين ، وربما لم يكن بالوسع أن يخرج فيها أحد من الأنصار — عملا بمبايعة العقبة — ولأنهم لم يكونوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم فيها إلا على حمايته ضد العدوان ، ولم يعاهدوه على أن يكونوا معه فى حرب يبدءون فيها بالهجوم .

وفى خلال عامين من بدء الهجرة كان عدد السرايا التى خرجت من المدينة مؤلفة من رجال – أكثرهم من المهاجرين وأقلهم من الأنصار – قد بلغ ثمانياً ، خرج بعضها فى العام الأول ، وخرج بعضها الآخر فى أوائل العام الثانى.

ومع اختلاف الرواة فى ترتيب هذه السرايا فانا نرجح ما قيل من أن أول سرية خرجت قد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادتها بنفسه ، كما تولى من بعدها ثلاث سرايا، فبلغت كلها تحت قيادته أربعاً . وكان أولها إلى الأبواء ثم إلى بواط ثم إلى العشيرة ثم إلى سفوان .

ولقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منذ مقدمه إليها إلى صفر فى السنة الثانية من الهجرة لم يتحرك ، ثم خرج فى صفر هذا حتى بلغ « ودان » (١) على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة يريد أن يتصل ببنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة ، فهذه غزوة الأبواء .

فودت بنو ضمرة مسالمة النبى وعاهدته على أن لا تحاربه ، فعقد النبى موادعة مع سيدهم مخشى بن عمرو، ثم رجع رسول الله إلى المدينة بعد خمسة عشر يوماً ، ولم يلق كيداً ولا حرباً (٢) .

وكان لواء هذه السرية لواء أبيض مع حمزة بن عبد المطلب ، وهى أول غزوة خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يقودها ، حتى يؤمن المدينة مما حولها ، وليكون عمله قدوة وتشجيعاً لمن يأمرهم بالخروج من بعد .

وحين عاد الرسول من غزوته (٣) هذه فى الأبواء بعث عبيدة بن الحارث من هذه السنة نفسها ومعه لواء أبيض على سرية من ستين أو ثمانين من المهاجرين

---

(١) ودان : بفتح الواو ودال مشددة مفتوحة ، قرية جامعة قريبة من الجحفة وهى لضمرة وغفار وكنانة – معجم البلدان فى ودان .

(٢) جوامع السيرة ص ١٠٠ – الدرر ص ١٠٣ .

(٣) التعبير بالغزوة هنا مجاز لأنها سرية .

ليس فيهم من الأنصار أحد ، فسار عبيدة بمن معه حتى بلغوا ماء بالحجاز إلى بطن رابغ بأسفل « ثنية المرة » (١) فوجد عندها جماعة من قريش يبلغ أفرادها المائتين ، وقد قيل إنه كان عليها عكرمة بن أبي جهل ، ويبدو أنه حدثت مشادة بين الفريقين بالرماية دون المسايفة ، ولكن لم يقع بينهما التحام .

غير أن سعد بن أبي وقاص أحد رجال السرية الإسلامية رمى بسهم من المشركين أو هو قد رمى به المشركين — وعلى رأى من قال إنه كان هو الرامى — فانه يقول : إن سعدا كان يفتخر بذلك قائلا : وإنى لأول المسلمين رمى المشركين بسهم (٢) . كما كان عبيدة بن الحارث صاحب أول راية — بعد رسول الله — فى الإسلام .

وكان طبيعياً أن يوكل إلى سعد بن أبي وقاص بعد رجوع هذه السرية أن يخرج على سرية أخرى يقودها بنفسه لاستطلاع عير أخرى ستمر بالمكان الذى حدد لسعد أن يخرج إليه .

فخرج فى ثمانية من المهاجرين على لواء أبيض يحمله المقداد بن عمرو الذى كان قد فر من المشركين إلى السرية السابقة : سرية عبيدة بن الحارث . فانه كان قد نتج عن الترامى بالسهام بين الفريقين والبعد والضرب بين رجالها أن فر من الكفار يومئذ المقداد بن عمرو هذا وعتبة بن غزوان ، وكانا قد خرجا فى عيز عكرمة بن أبي جهل ليتخذوا من هذا الخروج وسيلة للوصول فى يسر إلى المسلمين . وكان هذان الرجلان قديمى العهد بالإسلام إلا أنهما لم يكونا يجدان سبيلا ميسراً إلى اللحاق برسول الله .

---

(١) ثنية المرة بفتح الميم وتخفيف الراء كأنه تخفيف من المــــراة . وكان النبى صلى الله عليه وسلم مر بهـــا قبل ذلك مع أبى بكر الصديق ودليلهما فى الهجرة — معجم البلدان فى ثنية .

(٢) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٦٦ .

ومضى سعد بن أبي وقاص بسريته حتى بلغ مكاناً يقال له « الخرار » (١) فلم يلتق سعد في خروجه بأحد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى هذه السرية أن لا تجاوز الخرار ، فلما بلغت المكان كانت عير قريش قد سبقتها بيوم واحد أو يومين ، وكان مع العير ستون رجلا ، وقد اختلفوا فيمن كان يقود قافلة قريش هذه ، أهو أبوسفيان بن حرب بن أمية أم مكرز ابن حفص ، غير أنهم يرجحون أنه كان أبا سفيان (٢) .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب في سرية خرج بها في السنة نفسها على رأس سبعة أشهر من الهجرة تحت لواء أبيض كذلك يحمله أبو مرثد ، وليس فيها من الأنصار أحد ، وكان حمزة على ثلاثين راكباً من المهاجرين .

— ويبدو أنه لما كان حمزة في غزوة الأبواء صاحب اللواء الأبيض فيها ثم كان قائداً على هذه السرية فقد اشتبه الأمر على بعض الرواة حتى جعلوه هو قائد السرية الأولى وقد أوضحناه — .

وقد حان لهذه السرية — وكلها كانت من الركبان — أن تعترض قافلة لقريش على سيف البحر كانت مصعدة من مكة إلى الشام ، وكان عليها أبو جهل ابن هشام على ثلثمائة من أهل مكة . وكاد يحدث بين الفريقين شيء ، إلا أن مجدى ابن عمرو الجهني — بفضل ما كان له من موادعة الطرفين — استطاع أن يقوم حاجزاً بينهما فمرت القافلة بسلام .

ومهما اختلف الرواة في أي الرجلين خرجت سريته أولا : حمزة أم عبيدة،

---

(١) الخرار قيل انه واد من أودية المدينة وقيل موضع قرب الجحفة وقيل بارض الحجاز — معجم البلدان في خرار .
(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٠٢ .

فانها — على أية حال — أول راية عقدها رسول الله لأحد من المسلمين (١) .

ثم خرج رسول الله فى سرية من سراياه التى يقودها بنفسه حتى بلغ بواط من ناحية رضوى (٢) ، وكان قد حان هذه السرية أن تعترض عيرات لقريش وفيها أمية بن خلف ومائة رجل من المشركين وألفان وخمسمائة بعير . إلا أنها قد نجت من الاعتراض إذ سبقت فى الطريق ، فرجع النبى إلى المدينة ، ثم لبث فيها بقية من ربيع الآخر وبعضاً من جمادى الأولى . ومضت العيرات إلى الشام .

ثم عاود رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج فى سرية ثالثة حتى بلغ العشيرة (٣) . وفى هذه السرية لقى بنى مدلج فعقدوا مع النبى معاهدة وادعوه فيها . وكان سبب خروجه ما بلغه من أن العيرات السابقة التى عليها أمية بن خلف قد أنهت تجارتها فى الشام وشمرت للخروج منه عائدة فى الطريق .

وقد حمل لواء النبى فى هذه السرية أيضاً حمزة بن عبد المطلب . وفيها لقب رسول الله علياً ابن عمه أبى طالب بأبى تراب ، لأنه رآه هناك منتحياً ناحية وقد نام مستغرقاً فى تراب لين ، فحركه برجله وقال له « قم أبا تراب » .

ويبدو مما حدث لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه أن الأعمال فى هذه السرايا كانت كالتدريبات للفدائيين وأعمال الفداء — كما نقول فى عصرنا — ليواجه الفدائيون أشد حالات التقشف ويحتملوا أقسى حالات الصبر . وربما

---

(١) جوامع السيرة ص ١٠١ .

(٢) بواط جبل من جبال جهينة بناحية رضوى . ورضوى جبال قرب ينبع وهى ذات مياه وأشجار — معجم البلدان فى بواط ورضوى .

(٣) العشيرة بلفظ التصغير من ناحية ينبع بين مكة والمدينة وكانت لبنى مدلج — معجم البلدان فى عشيرة .

كان الجهد المضنى يغشى بعضهم بالنعاس إذا وجدوا بعض المأمن فألقوا بأنفسهم إلى النوم ، كما فعل عمار بن ياسر وعلى بن أبى طالب فى هذه الغزوة : غزوة ذات العشيرة إذ ألقيا بنفسيهما فى دقعاء من تراب لين فناما حتى جاءهما رسول الله وقد تتربا فى ذلك التراب . (١) .

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من هذه الغزوة لم يقم إلا نحوا من عشر ليال لا غير ، ثم بلغه أن كرز بن جابر الفهرى القرشى قد أغار على سرح للنبى بالمدينة فى أطرافها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلب كرز .

وقد حمل اللواء هذه المرة على بن أبى طالب ، ثم مضى الرسول حتى بلغ وادياً يقال اه سفوان (٢) من ناحية بدر ، ففاته كرز ، فرجع رسول الله إلى المدينة دون أن يلقاه .

* * *

من كل ذلك يتبين أن هذه السرايا كلها إنما كانت للتعرف على الطرقات والأماكن حول المدينة ولا سيما للمهاجرين الذين كانت هذه الأرض لهم أرض غربة أما أهل المدينة الأنصار فهم يعرفونها ، وكان أهم هذه الأماكن ما كان بين المدينة وبين البحر .

ثم كانت السرايا كذلك لموادعة القبائل الضاربة فى هذه الأماكن والمشرفة على أفواهها ودروبها ومياهها ، وذلك ليؤمن القائد العظيم مدينته ويحميها من كل جهاتها .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٠٨ .
(٢) كأن هذه التسمية من سفو التراب وثورانه .

ولم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم منعرجاً ولا صخرات ولا وادياً ولا ماء إلاسلكه وعرفه ليتم له تأمين المدينة ومعرفة أحوال الأعراب من حولها، وليكون له منطلق أمين من المدينة إلى أى جهة شاء فيما بعد .

ويبدو كذلك من اختلاف الرواة فى الترتيب لهذه السرايا كلها بما فيها سرايا رسول الله ذاته أنها كانت فى أوقات متقاربة جد التقارب ، وربما كانت اثنتان منها فى وقت واحد ، وذلك للإسراع فى عملية التأمين حول المدينة .

فاذا كانت — على اختلاف أقوال الرواة — قد بدأت من الشهر السابع من السنة الأولى من الهجرة فقد انتهت فى شعبان من السنة الثانية ، أى أنها لم تتجاوز اثنى عشر شهراً .

كما يبدو أن الحمل كله فى هذه السرايا قد وقع على كاهل المهاجرين أكثر من الأنصار ، بل كان معظم السرايا من خالصة المهاجرين وحدهم دون الأنصار .

ثم كانت الألوية البيضاء إشارة إلى المسالمة . وكانت المسئولية ملقاة على أقرب الناس من النبي ثم على أقرب أصحابه إليه . وقد دارت فيها أسماء عبيدة ابن الحارث(١) وحمزة وعلى وثلاثتهم من بيت عبدالمطلب ثم سعد بن أبي وقاص .

وما من شك فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توخى أن يخفف عن أهل المدينة مشقة السرايا ، ولكنه اختار لها القلوب الجريئة والأكفاء من الرجال .

ولأمر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ فى سريته الأخيرة ماء بدر فسميت بدراً الأولى أو بدراً الصغرى ، ثم جعل منذ قدم إلى المدينة يستخبر عن بدر .

---

(١) هو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب .

ولقد جاء عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال فى بعض قوله :

« لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها فاجتويناها ، وأصابنا بها وعك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخبر عن بدر (١) » .

فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرى — يا ترى — أنها أرض الإنذار والوعيد؟

(١) تاريخ الطبرى ص ٢ ص ٤٢٤ .





مُفترقُ الطريق



مُفتَرقُ الطَّرِيق

كان رجب شهراً محرماً فى الجاهلية ، أى كان يحرم عليهم فيه الشغب والقتال ، ثم ظل رجب شهراً من الأشهر الحرم فى الإسلام .

وحين كاد هذا الشهر ينتهى ويهل شعبان من السنة الثانية من الهجرة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث أبا عبيدة عامر بن الجراح فى بعث ، ثم رأى أن يستبدله بعبد الله بن جحش ، وذلك لأن أبا عبيدة كان ممن أغرم بملازمة رسول الله فى حله وترحاله ، فلما أراد رسول الله أن يبعثه على سرية وأخذ ابن الجراح يستعد للأمر لكى ينطلق ملبياً بكى بكاء مراً لمفارقته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أحس رسول الله منه هذا اللين ندب رجلا آخر مكانه وولاه على السرية هو عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى .

وانبعث القائد الجديد ومعه ثمانية رجال كلهم من المهاجرين ، وليس فيهم من الأنصار أحد ، وهم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعكاشة بن محصن وعتبة بن غزوان وسعد بن أبى وقاص وعامر بن ربيعة وواقد بن عبد الله وهذا الأخير فيه خلاف .

وكان هؤلاء يمثلون على الترتيب قبائل ربيعة وأسد ومازن وزهرة وعنزة وتميم وليث وفهر ، وكانوا من أمثل أصحاب رسول الله طاعة وشجاعة .

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً مقفلا إلى عبد الله بن جحش قائد هذه السرية ورسم له طريق سيره ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه — وهو أمر جرى عليه القادة الحكماء فى كتمان الأمور ذات الشأن والخطر حتى لا تكشف لأحد قبل أوانها فيضمن لها كتمان سرها ونجاحها .

ومن اليسير أن ندرك أن الخطط التى يراد بها إدراك العدو يجب أن تحاط بأكثف الأستار ، ولم يزل هذا الأمر متبعاً فى الدول الحديثة فى كل أمر هام ، ولا يحرص عليه إلا القائد الحريص الحكيم .

ومضى قائد السرية بأصحابه ، ثم فتح الكتاب بعد مسيرة يومين فى الاتجاه الذى أمر أن يسير فيه ، فلما فتح الكتاب وجد فيه :

« إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً — أو عيراً لقريش — وتعلم لنا من أخبارهم » .

فلما قرأ عبد الله كتاب النبى قال : سمعاً وطاعة . ثم أخبر أصحابه بما فيه وأنه لا يستكره أحدا منهم كما أمره رسول الله ، وأما هو فناهض بالأمر ليرصد قريشاً ، ومن أحب منكم الشهادة ورغب فيها فلينهض . ومن كره فليرجع .

فلم يكن من القوم جميعاً إلا أن قالوا له : كلنا نرغب فيما ترغب . وما منا أحد إلا هو سامع مطيع لرسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، فنهض عبد الله ونهضوا معه لما يقضى به الله لم يتردد أحد منهم ، فسلك بهم عبد الله حتى أتى مكاناً يقال له « بحران » (٢)

---

(١) الدرر — ص ١٢٨ — الطبرى ج ٢ ص ٤١١ .

(٢) بحران بضم الباء وفتحها مع سكون الحاء موضع بناحية الفرع والفرع بضمتين على ثمانية برد من المدينة — معجم البلدان فى بحران .

وحين بلغوا هذا المكان أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما ، كانا يتبادلان ركوبه ، ويبدو أنهما تركاه عند بعض شأنهما من غير أن يقيداه فشرد البعير ، فاضطر الرجلان أن يتخلفا عن السرية فى طلب البعير وذهبا فى أنحاء البادية يبحثان عنه ويرجعان به .

أما عبد الله ومعه بقية أصحابه فقد مضوا قاصدين إلى نخلة دون أن ينتظروا صاحبي البعير الذى ضل لينفذوا أمر رسول الله على الفور . وما أن ساروا فى الطريق حتى رأوا عيراً لقريش .

وكانت هذه العير حافلة بما تحمل ، كانت تحمل زبيباً وأدما وتجارات أخرى وعلى هذه العير رجل يقال عمرو بن الحضرمى وكان رجلا من الصدف وهى بطن من حضرموت (١) ، ومعه أخوان من بنى مخزوم هما عثمان بن عبد الله ابن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة ومعهما مولى لبنى مخزوم اسمه الحكم بن كيسان .

ونزل هؤلاء وأولئك بنخلة ، فلما رأى أصحاب العير هؤلاء المسلمين هابوهم ورهبوهم حينما نزلوا قريباً منهم ، ثم برز من المسلمين عكاشة بن محصن حتى أشرف عليهم ليزوه من قريب .

وكان عكاشة قد حلق رأسه ليوهم أنه محرم يريد العمرة ، فظن أصحاب العير أن هؤلاء يطلبون العمرة ، فاستأمنوهم وذهب الرهب من نفوسهم .

والتف المسلمون بعضهم على بعض يتشاورون :

هذا شهر رجب يكاد يهل ونحن فى آخر جمادى الثانية ، ورجب غداً أو بعد غد وهو شهر حرام ، ونحن بين أمرين أحلاهما مر ، فان قاتلناهم فربما بدأ الشهر فانتهكنا حرمته ، وإن تركناهم الليلة استطاعوا أن يدخلوا الأرض الحرام فيصير الامر علينا إثماً مغلظاً إذا تابعناهم ، فماذا نفعل ؟

---

(١) الدرر ص ١٠٨ .

وبعد مشاورة سريعة اتفقوا على أن يتشجعوا عليهم ويلقوهم ، ولم يكادا يلتقيان حتى بدأ بينها القتال ، وكانت فى أصحاب العير غلظة فيه ، فأسرع واقد ابن عبد الله التميمى اليربوعى أحد رجال المسلمين وكان حليفاً لعمر بن الخطاب — أسرع إلى سهم من قوسه ورمى به عمرو بن الحضرمى فخر عمرو صريعاً ، ثم هجم المسلمون على العير وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى أهله . أما نوفل أخو عثمان فقد استطاع أن يفلت فيمضى إلى مكة . وقبض المسلمون على العير .

حدث ذلك كله على مفترق الزمن بين الشهر الحرام والشهر الحلال ، فى آخر يوم من جمادى الثانية وأول ليلة من رجب ، وكانت ليلة شك عندهم فلم يتبينوا الهلال ،ولكنهم حين أيقنوا ثانى يوم أن رجب قد دخل أغمد المسلمون السيوف وظنوا بأنفسهم الظنون .

ثم حدث ذلك فى خارج دائرة الحرم من الأرض إذ لم تكن العير قد دخلتها فكان ظن الخوف من انتهاكهم الزمان لا انتهاك المكان .

ثم ساق عبد الله بن جحش عيره التى قبض عليها ومعها الأسيران إلى المدينة . وقد رأى أن يفصل فى الغنائم ويقسمها ، فأزمع أن يجعل لله ورسوله خمساً يقسمه رسول الله فيما يرى من مصالح المسلمين وفيمن يرى أن يعطيهم منه . وأن يفرق أربعة الأخماس بين المحاربين معه . وكان هذا الرأى فى التقسيم اجتهاداً من عبد الله ابن جحش قبل أن يفرض الله خمس الغنائم لله ورسوله . فكأنما هداه الله .

وأحصى عبد الله خمس الرسول وعزله فى جانب ، ثم مضى بالبقية حتى تكون قسمتها بين من كانوا معه بالمدينة وعند رسول الله ، فلما قدموا على النبى بما فعلوا وبما حملوا أنكر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلوه ، لأنه [لم] يأمرهم بقتال ولا أسر ، وقد كان كتابه صريحاً فى ترصد العير وتعلم الأخبار ، [و]هم قد وقع منهم ما وقع فى الشهر الحرام ، فسقط فى أيديهم مما أقدموا عليه .

ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين وأبى أن يقسم الغنائم فيأخذ منها شيئاً أو يعطى لأحد شيئاً مما تأثم منه فلم يأمر به . لأنه لم يؤمر بعد من الله بأن يقاتل ، ولأنه قد وقع فى مستهل الشهر الحرام .

وعلم أهل المدينة بما فعل هؤلاء وما قابلهم الرسول به فجعلوا يسيئون لقاء عبد الله بن جحش وأصحابه ، وظنوا جميعاً أنهم قد هلكوا حين صنعوا ما لم يؤمروا به من رسول الله .

أما اللذان أضلا بعيرهما من المسلمين وهما سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان فقد أوغلوا فى البادية عند نخلة وراء البعير يبحثان عنه ، فعثرت بهما قريش فقادتهما إلى مكة أسيرين ، وعلم رسول الله بخبرهما فانتظر أمر الله فيهما .

* * *

ربما كان كل ذلك قد حدث فى دائرة ضيقة ، وربما كان خطأ من عبد الله ابن جحش وأصحابه يرجعون عنه ويفك الأسيران وترد العير وأحمالها على قريش ولكن قريشاً اتخذتها فرصة للتشهير ولشن دعاية عريضة فى أنحاء الجزيرة كلها ، تتهم رسول الله والمسلمين بأنهم استحلوا حرمة الشهر وانتهكوا الحرمات ، فسفكوا الدماء وانتهبوا الأموال .

وطرب اليهود إذ رأوا الفرصة قد سنحت للدس والوقيعة ، فبدءوا يشعلون نار الفتنة ليزداد لهيبها اشتعالا . وقلق العرب من الدعاية التى تقوم بها قريش والدس الذى يفعله اليهود .

ولم يكن بد من أن يتطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا المضيق الذى انحصر فيه المسلمون — لم يكن بد من أن يتطلع إلى السماء ليرى مخرجاً مما وقعوا فيه .

ورحم الله رسوله وعباده إذ كثر الأعداء وأسفرت الفتنة وعمت ، وأفحش اليهود والمشركون فأنزل الله على رسوله ما يخرج المسلمين من أزمتهم دون أن

يوسموا بالعدوان أو انتهاك الحرام فقال سبحانه : « يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (١) .

ونصبت بهذه الآية كفتا ميزان رجحت فيه كفة الآثام التى ارتكبتها قريش ، فهى قد صدت عن سبيل الله وكفرت به ولم ترع حرمة البلد الحرام فأخرجت منه أهله وقطعت ما بين ذوى الرحم من الصلات واستولت على ديارهم وأموالهم وقتلت من قبل من استطاعت منهم وشردت من شردت ، ثم هى تنعى على المسلمين أن قتلوا رجلا منهم وأسروا رجلين : حراً ومولى . وقبضوا بعض الأموال ، ثم هم لم يقسموها ، وربما كان عليهم أن يردوها كما هى لم ينقص منها شىء لو أراد رسول الله . وقد وقع من المسلمين ما وقع فى ليلة فيها شك فى إهلال الشهر الحرام .

ولو تعادلت الأضرار الدنيوية التى ارتكبها كل منهم ضد الآخر — وهى لا تتعادل أبداً — فان هناك ضرراً دينياً بالغاً انفردت به قريش . إذ كل همها أن تفتن الناس عن دينهم وترد رسول الله عن دعوته ، بينما لم يفعل المسلمون شيئاً سوى أن أرادوا هداية الناس وجمعهم على وحدانية الله .

وفى بقية الآية ما يهول النفوس :

إذ هى توازن بين الفتنة والقتل ، أى بين ما يعم الناس من الخراب واضطراب النظام وسوء العاقبة وبين أن يقتل واحد منهم صواباً أو خطأ . فقول الله سبحانه « والفتنة أكبر من القتل » حكم قاطع تحكم به كل العقول وتقره ، وتنزل عليه كل أنظمة الناس .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

وقد بدأت قريش بالفتنة وهى لم تزل ماضية فيها ، ولا هم لها إلا أن توقع بأهل التوحيد مهما استطاعت ، ثم هى بدأت بقتل بعض المستضعفين منهم من قبل ولم يكونوا قد تعرضوا لأحد من المشركين فى ذات نفسه أو ذات ماله .

وكشفت الآية للنبي والمسلمين ما تنطوى عليه نيات الكفار إذ قال الله فيها « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » أى أن قريشاً والمشركين واليهود وكل ضالع معهم من الأعراب والمنافقين سوف لا يمتنعون عن قتالكم لردكم عن الدين حتى ولو لم تقاتلوهم ، فلم يعد بعد من سبيل إلى المهادنة والسلام .

وما أن نزل هذا الأمر من الله حتى أمر النبي من فوره باقتسام الغنائم ، وأمضى لعبد الله بن جحش ما رأى من الخمس لله ورسوله ، ثم حبس رسول الله الأسيرين عنده .

وأهم من ذلك كله أنه قد انفك عن الأشهر الحرم قيدها الجاهلى ، ذلك القيد الذى كانت قريش تريد أن تقيد به الرسول والمسلمين وحدهم دون أن تتقيد هى بحرمة زمان أو مكان .

وأقرت غنيمة الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه قوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى » (١) فأقر الله ورسوله فعل عبدالله بن جحش ورأيه وما هداه الله إليه فى الغنائم وقسمتها ، ثم صار سنة للأمة فى غنائمها من الحروب .

وقد تبين حينئذ صدق الخطة التى اتبعها الرسول ، فإن قريشاً اضطرت أن تبعث إلى النبي فى المدينة تطلب إليه فك أسيريها وأن تدفع له ما شاء من الفداء .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤١

وقد رأى رسول الله أن لا يفاديهما حتى يقدم صاحباه من أسر قريش : سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، وأن يصل هذان إلى المدينة قبل إطلاق سراح أسرى مكة ، وقد خشى رسول الله أن يكونوا قد قتلوهما أو بيتوا قتلهما ، فتهددهم بقتل أسيريه إن أقدمت قريش على قتل سعد وصاحبه ، فكان أن خضعت قريش ، وقدم سعد وعتبة إلى المدينة ففاداهما رسول الله .

وإذ قدم المسلمان الأسيران إلى المدينة أطلق النبي سراح المكيين . ولكنهما افترقا ، فأسرع كل منهما إلى ناحية تخالف الآخر ، فأسرع عثمان بن عبد الله ابن المغيرة إلى الكفر وإلى مكة فظل بها على كفره حتى مات ، وأما مولاهم الحكم بن كيسان فانه أسلم وأقام بالمدينة فدل بما فعل على أنه كان عاقلا حكيما وحراً سيداً ، ثم انتظم فى سلك مجاهدى الإسلام . وظل يحضر المواقع ويبلى فيها بلاء حسناً حتى مات شهيداً من بعد ، مات يوم بئر معونة (١) .

ولقد رفع الله الحكم بن كيسان من الخسيسة حين أسلم وجاهد فى صفوف المسلمين ، وكان الذى أسره فى تلك السرية المقداد بن عمرو (٢) . وقد أراد عمر أن يقتله ولكنه نجا من القتل حين أسلم عند رسول الله ، وقد تزوج فى الإسلام آمنة بنت عفان أخت عثمان بن عفان (٣) .

ومن الواضح البين أن هذه السرية : سرية عبد الله بن جحش كانت مفترق الطريق ، فعلى رغم أنها كانت من عدد ضئيل لا يقصد الحرب ولا يستطيع أن يشب لها نارا أو يسعر لها أوارا ، ثم لا يستطيع إن هو أشعلها

---

(١) بئر معونة هى فى طريق المصعد من المدينة الى مكة . وكانت لبنى سليم ـ معجم البلدان فى بئر .

(٢) الاصابة ج١ص ٣٤٦ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٤٧ .

أن يستمر فيها أو يصبر عليها ، فإنها صارت نقطة تحول فى سياسة الإسلام ، إذ شرع للمسلمين أن يقاتلوا الذين فتنوهم عن دينهم . وذلك التشريع كان أول أمر بالجهاد فى سبيل الله .

ثم لم يكن مفترق طريق للمسلمين وأهل المدينة وحدهم ، ولكنه كان أيضاً بالنسبة لقريش ، فقد بدأت مكة تعد للبأس والقوة وتجمع للعيرات المسافرة إلى الشام أموالا كثيرة من شتى بيوت أهل مكة ، وتجعل عليها أعداداً كبيرة من الرجال ذوى الحيلة والدربة وتزودهم بالمعرفة والحذر والسلاح .



القافلةُ الكبرى



القافلة الكبرى

أشرنا من قبل إلى أن قريشاً جعلت تتعرض لأهل المدينة فى الاعتمار وزيارة البيت الحرام ، واتضح مما أشرنا إليه أن سعد بن معاذ حين اعتمر لم يستطع أن يطوف إلا إذا هدأ الناس وبات بعيداً عنهم أن يعرفوه ، ومع أنه كان صديقاً لأمية بن خلف فان أمية لم يستطع أن يحميه إذا طاف على عيون الناس ، وكان أمية أحد الكبراء الذين أشعلوا هذا الخصام (١) .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد سرية عبد الله بن جحش أن قريشاً جمعت أموالها للتجارة ، فلم يبق أحد من أهل مكة إلا وقد اشترك فيها على قدر ما يطيقه ، حتى قدروا ما جمعته قريش بعشرات كثيرة من ألوف الدنانير ، ولم يتخلف عنها والاشتراك فى تجارتها ورجالها بطون كعب بن لؤى كلها (٢) وهم من تتألف منهم قريش مكة جميعاً .

ثم حملت هذه التجارة على عير تتألف من ألف بعير ، وجعلت قريش عليها أبا سفيان بن حرب بن أمية الحذر الداهية وتحته من الحراس على العير ثلاثون أو أربعون من أشداء الرجال فيهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى ، أما عمرو فمعروف الدهاء وأما مخرمة فكان حديدا سليط اللسان .

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٠٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٢٢ .

ولقد كان فى الإمكان أن تلتقى سرية الرسول التى خرج فيها إلى العشيرة بهذه القافلة فتعترض طريقها وهى مصعدة إلى الشام ، ولكن القدر لم يشأ أن يلتقيا ، فسبقت عير أبى سفيان سرية الرسول من المكان الذى ربما كانا يلتقيان فيه على طريق التجارة بيومين اثنين . وبذلك أمكن لأبى سفيان أن يبلغ الشام بتجارته دون أن يلتقى النبى أو يفطن أنه سيبلغ المكان الذى مر به بعد يومين .

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد علم بمرور أبى سفيان فنوى أن يعترضه فى أثناء عودته ، ولعل ذلك أفضل ، لأن العير ستعود — لا محالة — محملة بالنفائس والتجارة والأموال من الشام ، وهو أمر كان قد تعلمه الرسول منذ كان فى صغره مرتحلا مع عمه أبى طالب ومسافراً من بعد ذلك بمال خديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة ، وكما عرف من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث .

وكان الزمن المقدر لذهاب أبى سفيان إلى الشام وعودته منها حتى يمر ببدر فى رجوعه نحواً من ثلاثة أشهر ، حسب فيها — بدقة عظيمة — تقدير التجارة والأسواق ومدة الارتحال ، ثم كان تقديراً صادقاً إذ لم يخالف حساب النبى فى شىء .

ولعله لا يكون من النافلة أن نضرب هنا مثلا بدقة تقديرات الرسول لشتى الأشياء وامتيازها على كل من معه من الرجال ، فقد أورد البخارى فى باب الزكاة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك مر بوادى القرى فاذا امرأة فى حديقة لها وبها نخل كثير فقال لأصحابه : اخرصوا — أى قدروا كم تثمر هذه الحديقة — فخرص أصحابه وخرص رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أوسق .

ثم عاد الرسول وأصحابه من تبوك ، وإذا النخل قد أثمر ، وجمعت المرأة حبه وتمره ، فسألها رسول الله قائلا : كم جاء حديقتك ؟ قالت: عشرة أوسق . هكذا تماماً بقدر ما خرص وقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

ونعود من هذا المثل إلى ما نحن بسبيله فنقول :

حين تحين النبي رجوع أبي سفيان من الشام رأى أن يجس الطريق فبعث برجلين ليتحسسا الطريق هما طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد .

ومضى الرجلان حتى نزلا بخباء لرجل يقال له «كشد» (٢) من جهينة قد نصب خباءه فى الروحاء على نحو ثلاثين ميلا من المدينة ، فأقاما عند هذا الجهنى حتى لاحت العير لهما وأيقنا بمجيئها .

وسرعان ما نهضا إلى بعيريهما وارتحلاهما إلى المدينة ليفضيا بما علماه لرسول الله ، ولكنهما حين بلغا المدينة كان رسول الله قد خرج منها ، لأنه كان قد قدر أن تكون العير قد بلغت الروحاء وخشى أن تكون قد فاتت الرجلين فخرج دون أن ينتظر ما يجيئان به .

وإذ قدر رسول الله هذا التقدير ندب المسلمين إلى الخروج لاعتراض العير ، وأمر من كان بعيره أو فرسه حاضراً أن يخرج معه ، فطلب إليه قوم ممن كانوا يسكنون عوالى المدينة — وأغلبهم من الخزرج — أن يذهبوا فيحضروا رواحلهم ليخرجوا معه ، فلم يرض رسول الله أن ينتظر ، لأنه لم يكن محتفلا بالحشد والجمع والكثرة وإعداد القوة إذ هو لا يريد غير العير ، وهى لا قوة لها ولا شوكة ، وهو لم يبيت نية على قتال . وكانت دعوته المسلمين حين ذلك

---

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) صار كشد من الصحابة حين أسلم وأورده صاحب الاصابة (بالسين بدل الشين) وذكر انه كسد بن مالك — الاصابة ج٣ص٢٧٧ .

للخروج بقوله لهم « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » (١)

وشعر أبو سفيان حين اقترب من الروحاء . أن عيوناً ترصده . فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة يستصرخ أهلها إلى مناصرة العير حتى ينجو ، فنهض ضمضم إلى مكة ، فلما كان ببطنها هتف بأهلها واستنفرهم وجعل كلما أوغل فيها هتف واستصرخ ، حتى بلغ مكان البيت . فخرج أكثر الناس وتقدم الأشراف ثم تجهزوا جميعاً للخروج لم يتخلف منهم إلا القليل . على شرط أن يبعث معهم بمن يكون فى مكانه ، فكان ممن تخلفوا ببدل خرج عنهم أبو لهب بن عبد المطلب .

وأما أصحاب النبي فقد خف بعضهم لندائه وثقل بعضهم ، وطمع جماعة ممن لم يسلموا وبقوا على شركهم أن ينتظموا فى سلك المسلمين رغبة فى الغنائم فأبى رسول الله عليهم أن ينضموا إليه إلا إذا نزعوا عنهم الشرك وآمنوا بالله ورسوله ، وبذلك لم يخرج معه إلا كل مؤمن مبايع خالص المبايعة والإيمان .

ثم استيقن أبو سفيان أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان قد خرج فى بعض الناس لاعتراضه وهو مصعد إلى الشام فلم يكتف بارسال ضمضم الغفارى إلى مكة فجعل يغذ السير حذراً حتى يسعفه أهل مكة بالأمداد التى يريدها لتتم له النجاة .

وجعل هذا الرجل الحذر الحريص يسأل كل من يمر به فى الروحاء عما رأى ويتنسم الأخبار حتى سأل كشدا الجهنى ذاته ، ذلك الذى نزل فى خبائه مبعوثا النبي ثم تركاه وركبا إلى المدينة قبيل أن تهل أوائل العير وسوابقها فى الطريق فزاد حذره وعدل عن الطريق .

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٨٥ — سير اعلام النبلاء ج ١ ص ٩٣ .

وبلغ ضمضم الغفارى مكة ثم أبلغها الخبر – بطريقة نعبر عنها نحن فى زماننا بأنها طريقة (مسرحية) أثارت ثائرتهم وألهبت مشاعرهم – فما كاد يصل إلى بطن مكة حتى قطع أذن بعيره وجدع أنفه وحول رحله ووقف عليه وقد شد قميصه من قبل ومن دبر ، وجعل يصيح ويقول :

يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة – أى المال والتجارة – أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، ولا أرى أن تدركوها ، فالغوث الغوث !

وانتهز أبو جهل عدو الإسلام الألد هذه الفرصة ، وخيل إليه أن الوقت قد حان للقضاء على محمد ودعوته ، وقد هيأوا لها عند العرب فى الجزيرة كلها بانتهاك الشهر الحرام ، فمضى أبو جهل يصيح عند الكعبة فى جموع قريش حتى يخرجوا لإنقاذ الأموال .

غير أن طائفة من أهل مكة كانت بينهم وبين قبائل كنانة التى تسكن فى الطريق عداوات وثارات فخشوا إن هم خرجوا أن يلقوا أعداءهم فلا يلحقوا بأبى سفيان ، وكادت هذه الخشية تقعدهم عن الخروج لولا أن تقدم إليهم فجأة مالك بن جعشم أحد أشراف كنانة وكان حاضراً نداء أبى جهل على النفير فأمن قريشاً وعهد إليها أن كنانة لن تعترض أحداً ولن تلقى قريشاً فى حرب إذا حدث أن اشتبكت مع محمد فيها .

وقويت حين ذلك كفة الداعين للخروج ، ونفخ ذلك فى غرور الناس فلم يبق قادر على الخروج إلا طرح عذره فى التخلف أو أرسل مكانه رجلا حراً أو مولى .

وكان من الذين تخلفوا أبو لهب ، فقد أرسل مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة وفاء لدين كان على العاصى لأبى لهب قدره أربعة آلاف درهم ، كان العاصى قد أعلن إفلاسه عنها ، فاستأجره أبو لهب – وهو مفلس – ظلماً وتجبراً .

وقرر أمية بن خلف العدو الألد الآخر أن يقعد عن الخروج ويبقى فى مكة لأنه كان قد ثقل وكبرت سنه ، فمضى إليه أبو جهل وعقبة بن أبى معيط وهما أمثاله فى السن والثقل يسخران به وينالان منه ويتهمانه بالجبن ، فلم ير بدأ من الخروج .

وهكذا خرج المشركون من مكة فى اليوم الثامن والعشرين من شعبان فى السنة الثانية من الهجرة فى ألف رجل تقريباً ، وخرجوا جميعاً ركباناً على نحو من مائة فرس وسبعمائة بعير ، وهم يستعرون بنار الحقد ويندفعون وراء شياطين الغدر والانتقام .

ولا بد لنا هنا من أن نتأمل موقف جميع الأطراف فى هذا الوقت من أوائل رمضان من هذه السنة ليتضح لنا الموقف وينجلى بأوضح صورة :

فاننا نجد قافلة أبى سفيان الضخمة تغذ السير فى طريق القوافل منحدرة من الشام ، ولم يبق أمامها سوى بضعة أميال للوصول إلى بدر حيث منطقة الآبار والنخيل والظلال ، وهى المنطقة التى صارت فيئاً للقوافل تقف عندها للإرواء والسقى والراحة من متاعب السفر ووعثائه ، وعلى هذه القافلة رجل حذر قد أقلقه الخوف على عيره وأموال أهله فهو دائم التجسس والتسآل .

ولعل قائد العير قد اطمأن بعض الاطمئنان حين عن له أن يبعث بضمضم الغفارى إلى مكة ، ثم زاد اطمئنانه حين راوحه الأمل فى أن تلحق به الأمداد ، وكان ذلك كله حقائق واقعة إذ كان ضمضم قد بلغ مكة واستنفرها فنفرت كلها فى جيش لجب صاخب منذ أيام يسرع على طريق القوافل المصعد إلى الشمال .

حقاً ، إن أبا سفيان لم يكن بالغ الاطمئنان على أن أهل مكة سيدركونه ، كما لم يكن يدرى على وجه اليقين شيئا عن المكان الذى سيلتقى فيه بهم ، إلا أنه قد احتاط لأمره وأفرغ كل حيله ما أمكنته الحيلة ووسعه الاحتياط .

وجد أشراف مكة وزعماؤها فى السير بالناس أملا فى إنقاذ القافلة قبل آن تقع فى قبضة محمد وأصحابه ، وساروا إلى الشمال مسرعين ، وكأنما هم مسوقون بهراوة مجنون .

تلك حال القافلة وحال أهل مكة والجيش الذى بعثوه فى الطريق . أما الموقف فى مدينة الرسول فقد أسرع المسلمون الذين حضرت رواحلهم أو لم تحضر دون تأهب أو استعداد استجابة لنداء رسول الله لهم بأن يخرج على الفور من كان حاضر الرحل ، ولم يمض غير وقت قصير من ساعات النهار حتى كانوا قد آخذوا فى السير على فم الطريق : طريق القوافل بين مكة والشام .

على أنهم هم الآخرون لم يكونوا يدرون تماماً مكان لقائهم مع القافلة ، كما لم يدر فى خلدهم أن مكة كلها قد نفرت فى جيش صاحب جرار يقصد نفس المكان الذى يقصدون إليه .

وهكذا أصبح الموقف يتلخص بغاية الاختصار : من قافلة تجارية تحتال فى الروغان إلى مكة ، وفئتان أخريان غير متكافئتين ، لأن مكة تسير فى جيش ، والمسلمون يسيرون فى طائفة أغلبها يسير على الأقدام ، وهما معا يتجهان إلى طريق القافلة بقوة وسرعة ، والقادمون من الشرق قادمون لاقتناصها ، والزاحفون من الجنوب يسرعون لإنقاذها وحمايتها .

ولم يكن فى ظن أحد أن يلتقى الطرفان دون القافلة ، ويصبح المسلمون وهم على تلك الحال التى خرجوا فيها على اضطرار لقتال جيش صاحب من الأعداء — وقد زود بكل ما تحتاج إليه الجيوش حين ذلك من مؤونة وسلاح — وأن يكون هذا اللقاء على غير ميعاد ، ولكن الله كان قد قدر ذلك وهيأ له ، وكما قال سبحانه :

« ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا »(١) .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٢ .



تقدير الموقف

خرج النبي عليه الصلاة والسلام فى أصحابه من المدينة فى اليوم الثامن من رمضان للسنة الثانية من الهجرة ، واستعمل عليها أبا لبابة بعد أن رده ممن كانوا قد ساروا معه ، ورده من الروحاء ، ثم جعل معه عمرو بن أم مكتوم العامرى ليصلى بالناس .

ويقال إن اسم أبي لبابة بشير بن عبد المنذر الأنصارى وله قصة مشهورة فى غزوة تبوك ، ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره على المدينة حين رده من الروحاء إليها هو وآخر معه اسمه الحارث بن حاطب فان رسول الله احتسبه مع من خرجوا معه فى بدر فصار بدرياً (١) .

وخرج رسول الله وابنته رقية مريضة قد ثقل عليها المرض ، وكانت عند عثمان بن عفان ، فترك النبي زوجها عندها ليمرضها ويرعاها من حيث يحتسبه فى جملة الخارجين معه للقاء العير .

ودفع رسول الله اللواء العام إلى مصعب بن عمير ثم دفع الرايتين : راية المهاجرين إلى على بن أبي طالب ، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ ، وكانت الرايتان هذه المرة سوداوين — وكأنما تبدل الأمر وتغير إذ كانت الرايات فى

(١) الاصابة ج ٤ ص ١٩٧ — الاستيعاب ج ٤ ص ١٩٧ .

السرايا السابقة بيضاء – ثم جعل على المؤخرة قيس بن أبى صعصعة أخا بنى مازن بن النجار (١)

وبلغت عدة الناس جميعاً من المهاجرين والأنصار نيفاً وثلثمائة ، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس وبقية الناس من الخزرج وعددهم مائة وسبعون .

ومن هؤلاء الذين خرجوا غلمان لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من أعمارهم إلا بشهور قليلة أو أيام ، منهم عمير بن أبى وقاص أخو سعد بن أبى وقاص ، وكان عمير هذا صغيراً قصيراً وقد استشهد فى الوقعة وكان سعد أخوه يصفه إبان الوقعة فيقول : لقد عقدت حمائل سيفه وإنها لتقصر . وذلك لصغره (٢) . كما أن حارثة بن سراقة وهو غلام آخر حدث جاءه فى الوقعة سهم خاطىء لم يعرف راميه فاستشهد (٣) .

ويقول ابن القيم :

وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء لأن منازلهم كانت فى عوالى المدينة ، وجاء النفير بغتة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضرا – فرسه أو بعيره – » فاستأذنه رجال ظهورهم كانت فى عوالى المدينة أن يستأنى بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم فأبى ، ولم يكن عزمهم اللقاء ، ولا أعدوا له عدة ولا تأهبوا له أهبة (٤) .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٣٣ .
(٢) أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٨٨
(٣) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ١٢٤ .
(٤) زاد المعاد ج٢ص ٩٠ .

ثم عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه حين برز من المدينة فاستصغر عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد مولاه ورافع بن خديج والبراء ، ابن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وغيرهم فلم يجزهم(١) .

وإنما ذكرنا هذه الأسماء وكانت الإشارة تكفى ليكون الدليل قاطعاً بذكر الأسماء على أن الصبيان الذين كانوا أسلموا قد عرفوا ما أوجبه عليهم دينهم فلم يتخلفوا عن أشد المواقف حرجاً فى نصرة رسول الله .

ثم خرج النبي وأصحابه ومعهم سبعون راحلة ، فكان الاثنان والثلاثة والأربعة يتبادلون فى الركوب بعيراً واحداً ، وكان النبي نفسه يعتقب بعيره ويتبادل ركوبه مع على بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد ، وربما فضل النبي صاحبيه عليه فى الركوب ، وهما يدعوانه ليركب فى نوبتهما فيرفض دعوتهما .

ولم يكن معهم سوى فرسين اثنتين : فرس للزبير بن العوام وفرس للمقداد ابن عمرو البهرانى ، وقيل بل الثانية كانت لمرثد بن أبي مرثد الغنوى (٢) ، فسار الزبير بن العوام على فرسه على الميمنة ، والمقداد أو مرثد على فرسه على الميسرة ، وكان الزبير — وهو فارس القوم — لم يبلغ سوى سبعة عشر عاماً (٣) ثم لم يكن معهم من الدروع سوى ست أدرع ومن السيوف سوى ثمانية (٤) .

وانطلق القوم على هذه الصورة نحو طريق القوافل خشية أن يفلت منهم عير أبي سفيان هذه المرة وهو عائد كما أفلت المرة السابقة وهو صاعد ، ثم

---

(١) انساب الأشراف ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ج١ص ٢٩ .

(٤) تفسير الجلالين سورة آل عمران فى قوله تعالى (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا) الآية ٣ .

بلغوا على عجل — نسبى — وادياً يقال له ذفران ، وإذا وجه الأمر قد تغير ، فقد جاءهم الخبر اليقين بأن قريشاً قد خرجت كلها من مكة لتلقى عيرها ، ولم يكونوا قد سمعوا بذلك قبل خروجهم من المدينة (١) .

وإذن فلن يكون هؤلاء المسلمون الثلثمائة أمام أبى سفيان وعيره والثلاثين رجلا أو الأربعين الذين يحرسونها والذين لا يملكون مقاومة محمد وأصحابه ، بل هذه مكة كلها قد خرجت وعلى رأسها أشراف قريش وقد دفعهم الحرص جميعاً للدفاع عن أموالهم ، فان كل بيت فى مكة له مال فيها .

وكأى قائد عسكرى كان من واجب الرسول عليه الصلاة والسلام تقدير موقفه العسكرى للوصول إلى الخطة التى سيسلكها جيشه لمواجهة هذا الموقف العصيب والذى قل أن واجهه جيش فى التاريخ .

وإذا أتيح لنا أن نقدر هذا الموقف العسكرى تقديراً صائباً — على ضوء النظريات الحربية الحديثة وطبقاً لأحدث مفاهيم الفن العسكرى — فان نتيجة تقديرنا الحديث لن تختلف عن النتيجة التى توصل إليها الرسول عليه الصلاة والسلام وهو رابض بجيشه الصغير فى وادى ذفران منذ أكثر من أربعة عشر قرناً .

وعند تقدير هذا الموقف — بل وكل موقف متشابه — ينبغى البدء بذكر الغرض ، فنجد أنه الاستيلاء على قافلة أبى سفيان . فان انتقلنا بعدئذ إلى العوامل التى تؤثر فى تحقيق الغرض وأوردنا مناقشتها بترتيب أهميتها فوف نبدأ دون شك بمقارنة القوتين المتضادتين .

ولا يمكن فى مثل هذا المقام أن نقارن بين قوة المسلمين والقوة التى تحرس القافلة وحسب ، بل لقد طرأ على الموقف عامل جديد قلب ميزان القوى رأساً

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٢٢

على عقب ، وهو تدخل جيش المشركين فى الموقف ، وبهذا التدخل أضحى من الحتم أن تجرى المقارنة بين جيش المسلمين وجيوش قريش .

وكم تكون المقارنة فريدة فى نوعها حين نقيس جيش المسلمين فى عدد رجاله بجيش المشركين ، فترى الثانى يبلغ أكثر من ثلاثة أمثال الأول ، مع أن الأول فيه كثير ممن بلغوا الحلم منذ شهور قليلة ، ولقد رد رسول الله بعضهم ممن لم يبلغوا الحلم كما قدمنا من قبل (١) .

وإذا قدرنا أن أمام جيش المشركين خمسة عشر يوماً بالسير العنيف يلتقى بعدها بجيش المدينة وأن أمام جيش المدينة أسبوعاً كاملا حتى يبلغ مكان الالتقاء ، كان علينا أيضاً أن نقيس المسافة بين مكة وبدر وبين المدينة وبدر ، وإذا قدرنا أن الأولى أربعة أمثال الثانية تقريباً فاننا ندرك فى يسر وسهولة ، أن قوة جيش مكة فى السير كانت أربعة أميال تقريباً إلى ميل واحد يقطعه جيش المدينة لأن أولئك من الركبان وهؤلاء من المشاة .

ولو انتقلنا إلى مقارنة السلاح الحاسم فى المعارك حينئذ وهو سلاح الفرسان لأذهلتنا نتيجة المقارنة بين فارسين اثنين مسلمين ، وبين مائة من فرسان المشركين على خيل عددها مائة ، وقد سلح الجيش كله بالدروع والسيوف والنبال وكل أدوات الفرسان .

وإذن فقد عرفنا — منذ الآن — نتيجة المقارنة ، وبان أن نسبة الفوز والغلبة ستكون كنسبة نقطة واحدة للمسلمين إلى خمسين نقطة أو أكثر للمشركين .

فاذا ذكرنا سلاح التنقلات السريعة وخفة الحركة ، وكان حينئذ معتمداً على الإبل وجدنا أننا سنقارن ونقيس بين سبعين بعيزا لدى المسلمين وسبعمائة بعيز لدى المشركين . ونتيجة ذلك أيضاً يكون منها نقطة واحدة لصالح المسلمين إلى عشر نقط للمشركين .

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٧٧ .

فاذا مضينا فى مقارنتنا هذه — وأظنها مقارنة فريدة فى نوعها ولم يسبق إليها أحد من قبل — ثم انتقلنا إلى تسليح الجيش وجدنا أن تسليح رجال قريش أتم وأثقل بكثير من حيث النوع من تسليح المسلمين ، مع غض النظر عن تفوق المشركين فى عدد الرجال .

وتكوين الجيشين أيضاً لا بد له من قياس ومقارنة :

فجيش المشركين يتألف من جماعة أهل مكة وعليهم أشرافهم ورؤساؤهم وهم مشدودون بروابط النسب والعصبية القبلية القديمة ، وقد كان لأكثرهم دربة على القتال والمهارة فيه .

أما جيش المدينة فانه يتألف من جماعتين من المهاجرين والأنصار وفيهم عدد من الذين كانوا يستضعفون فى مكة ، ولا بد أن تكون فى قلوبهم بقية من الرعب ممن كانوا يعذبونهم لو رأوا أنفسهم أمامهم فى قتال ، ثم إن فيهم عدداً آخر من الذين لم يشبوا عن الصبا إلا قليلا وهم مع قلة الدربة والمهارة حديثو عهد بالاسلام .

وحينما خرج المسلمون من المدينة لم يكن لهم من هدف سوى الاستيلاء على قافلة تجارية خيل إليهم أنها ضعيفة إذ لا يحرسها إلا نفر قليل من الرجال ، ومن السهل أن يتغلبوا عليها بعد مناوشات قصيرة ، مما لا يستدعى أن يتزودوا لها بغير سلاح خفيف من السيوف والنبال .

أما جيش المشركين فقد خرج برجاله من القبائل وحلفائهم وهم أهل مكة جميعاً ، لأن العير — كما قلنا من قبل — كانت لبطون كعب بن لؤى كلها ، ولذا فقد نفر لها أهل مكة جميعاً (١) ، وقد تجهزوا بعد نداء ضمضم الغفارى وقالوا :

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٢٢ .

ايظن محمد واصحابه ان تكون كعير ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك .

فكانوا بين رجلين : إما خارج وإما باعث مكانه رجلا ، وقد أوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد .

وكذلك خرجوا فى أتم أهبة وأقوى عدة وأمضى أسلحة ، إذ هم يعلمون أن استنقاذ قافلتهم من محمد وأصحابه لن يكون إلا بعد نضال عنيف يشتبكون فيه مع عدد هائل وقوة ضاربة من أهل المدينة .

ومع هذا الحساب الذى حسبوه فقد بلغ بهم الفخر والبطر مبلغاً كبيراً ، إذ عرض عليهم رجل من أشراف البادية وعظمائها يقال له « خفاف الغفارى » أن يمدهم بالسلاح والرجال ليزيد جيشهم عدداً وقوة ، وأن يكون هذا المدد بقيادة ابنه ، وكان الابن مغواراً شجاعاً ، فأرسلوا إليه يشكرون له هذه النخوة ويقولون له :

لقد قضيت الذى عليك ، ولئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ، ولئن كنا نقاتل الله — كما يزعم محمد — فما لأحد بالله من طاقة (١) .

وهكذا سخرت قريش وقدرت فى نفسها — معتزة بقوتها التى رأتها كافية — أنها تهاجم بها المدينة ذاتها لو قدر لمحمد وأصحابه أن يسبقوها إلى العير ويستولوا عليها ، ولا بد على كل حال من استنقاذ الأموال قسراً ، حتى ولو كان محمد وأصحابه قد قبضوا عليها ودخلوا المدينة بها .

وربما كان هذا التقدير تقديراً بشرياً صحيحاً ، ولعله يصور أيضاً أن المعركة لو نشبت بين الفريقين فانها ستكون أشد ضراوة وفتكاً منها لو استخلصت العير قبل القتال .

* * *

(١) المرجع نفسه ص ٤٤١ .

غير أن ثمة عاملا آخر هاماً يجدر بنا أن نضيفه إلى قائمة العوامل ، وهو الروح المعنوى لدى الفريقين . ولا يحسبن أحد أنه عامل ثانوى لا أهمية له ، بل إنه ربما أصبح فى كل معركة حربية وغير حربية — أقوى العوامل على الانتصار فيها أو الصبر عليها .

وشتان بين ما نجد من الفروق بين المسلمين الذين خرجوا للجهاد فى سبيل الله والدفاع عن دينه والوقوف فى وجه المعتدين عليهما ، وهم إذا اشتبكوا فى القتال فانهم سيحاربون عن إيمان بأنهم الفائزون — لا محالة — بخيرى الدنيا والآخرة ، فاذا قدر لهم النصر فقد فازوا بالغنيمة ، وإذا لم يقدر لهم إلا الموت فقد فازوا بالمطلب الأول والنصيب الأوفى .

نعم ، شتان بين هؤلاء وبين الأعداء ، وهم خليط من المشركين والمرغمين على القتال والسير ، وسيحارب الأولون من أجل دنياهم ثم هم لا يتأدبون بأدب فى حرب ولا سلم ، ولا يتورعون عن أى بغى فى سبيل السيطرة التى يبغى رؤساؤهم أن يظلوا عليها وأن يمتد سلطانهم بها ، وهم حين يحاربون فى استنقاذ الأموال فانما يحاربون بنفوس تمتلىء حقداً وفجوراً .

ففريق لا يهمه أن يعيش ، وهو إذا استشهد فخير له من أن يبقى ، ووراءه فى المدينة من ينصر الله ودينه ونبيه أشد من نصرتهم له ، فهو إذا حارب فانه سيقبل على مظان الموت ويتحراها ، وفريق آخر يحرص فى جنون على حياته ويهيم باللذات الدنيوية التى يتعشقها ، ورؤساؤه أحرص منه على انتهاء المعركة على أكثر ما يكون من العجلة والسرعة كى يرجعوا إلى سلطانهم وملاهيهم .

وهنا ، ومن هذه النقطة وحدها ولا شىء غيرها ، سترجح كفة جيش محمد بن عبدالله ، ولكن بعد أن يكون للقدر الرحيم يد معهم وذلك إذا قدرنا أنهم يعودون أحياء دون أن يستشهدوا جميعاً .

وربما كان من أحسن الأمثلة لحال من أحوال جيش محمد صلى الله عليه وسلم ما حدث عند خروجهم من المدينة بين سعد بن خيثمة وأبيه :

إذ قال خيثمة لابنه حين ندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين للخروج قال خيثمة لابنه : آثرني بالخروج وأقم مع نسائك ، فأبى سعد على أبيه وقال :

لو كان غير الجنة آثرتك بها .

فلم يرض خيثمة إلا أن يقترع بينه وبين ابنه سعد على الخروج فلما اقترعا خرج سهم سعد فخرج دون أبيه ، فحزن هذا الأب حزناً شديداً وجعل يتمنى أن يصيبه ما أصاب ابنه ، فأرضى الله الرجلين : الأب وابنه ، فاستشهد سعد ببدر ثم استشهد أبوه فى أحد من بعده (١) .

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ١٩٣ .



أين الحل

وبعد كل هذه الأقيسة والموازين التى قدمناها ، والعوامل التى استعرضناها ، ثم النظر إلى طرق الحل المفتوحة — كما فى الاصطلاحات الحربية الحديثة — أمام جيش الرسول عليه الصلاة والسلام فاننا لا نجد سوى حلين اثنين ، وأحلاهما مر .

فاما التقدم فى اتجاه القافلة المنحدرة من الشام للاستيلاء عليها ، والتعرض فى هذه الحالة للقاء ذلك الجيش الضخم الذى أرسلته قريش ، وإما الانسحاب .

ولقد كان من المحتمل الاستيلاء على القافلة بسهولة لو لم تدركها قريش بجحافلها ، أما الآن فلم يعد من اليسير الاستيلاء عليها ، بل ولا الاقتراب والدنو منها ، ولكن ذلك لن يكون محققاً أكيداً إلا إذا قدر لقريش أن تلحق بها قبل محمد ، أو — على الأقل — أن يلتقيا على طرفيها فى زمان واحد .

ولو لجأ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحل الثانى ، وهو الانسحاب — ولا بد أن يجرى بسرعة خاطفة إلى المدينة قبل أن تقطع عليه قريش خط الرجعة إليها ، ثم قد عرفت نسبة سرعة جيش مكة إلى سرعة جيش المدينة من قبل — لو لجأ الرسول إلى هذا الحل فانه زيادة على ضياع الفرصة وفوات الغرض الأصيل الذى كان الخروج من أجله ، فان قريشاً سوف تطمع فى المسلمين بعد هذا المظهر المزرى من الضعف والخوف ، ولا بد أن يغريها ذلك

بالزحف على المدينة للقضاء على محمد وأصحابه لمنع التهديد المستمر لتجارتها الشامية والعراقية أيضاً ، والذى لا بد أن يستشرى لو تركت لهم فرص أخرى .

وهناك — فى داخل المدينة — فرصة مواتية ، إذ لو ظهر هذا الضعف بالانسحاب والانزواء لطمع أولئك اليهود المتربصون فى المدينة مع معونة المنافقين منهم ومن غيرهم ، والذين كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن يرموا المسلمين مع العرب عن قوس واحدة (١) .

أقول : لو ظهر ذلك من المسلمين لحان لهم أن يساعدوا قريشاً على التخلص من هؤلاء المهاجرين الغرباء الذين وفدوا على المدينة فغيروا وجوه الحياة فيها جميعاً .

وتحت حساب كل هذه الظروف والأحوال — التى نتعرض لدراستها من ناحيتنا البشرية — فان الرسول والمسلمين لم يترددوا فى اختيار الحل الأول الذى تمليه ضرورة حربية باعتباره أفضل الحلين ، حتى لا يقع المسلمون بين شقى الرحى .

ولكن ، هل نستطيع أن نسميه — مع ذلك — حلا انتحارياً ؟

وبالرغم من أننا لو سميناه كذلك فانه — مع ذلك — أفضل من الناحية العسكرية وأسلم من الانسحاب ، لأنه موقف ضرورة ، وطالما رأينا أمثاله فى المواقع الضرورية الحربية فى عصرنا براً وبحراً .

ولن نجاوز الحقيقة إذا سميناه انتحاريا . وقد جبرتهم الضرورة عليه . ولقد نزل أمر السماء بتعاليم المعركة لأهل بدر المسلمين . وكان منها مانصه :

« ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله » .

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ .

فوضعت تعاليم الآية الفرار من الزحف — لأول مرة — فى ضمن الكبائر. فلم يكن مباحاً لأحد منهم أن يتقهقر إلا منحازاً إلى عريش النبي ، أما بعده فلا.

ويقولون إنها صارت تعاليم باقية للمسلمين إلى يوم القيامة حيث يجب أن ينحاز المتقهقرون إلى مكان إمامهم وقائدهم ، أما بعده فهو مستوجب غضب الله . والاستشهاد باقتحام مواقع الموت أولى (١) .

هذا ، ولو أخذت الأمور بالمقاييس العادية وبالمنطق المألوف فى مثل هذه الحالة لكانت الهزيمة على المسلمين أمراً محققاً لا جدال فيه ، طبقاً للمقارنات التى قدمناها فى الفصل السابق واستوعبنا فيها الكلام على العدد والسرعة والسلاح والتدريب .

وحتى لو قدرنا العامل المعنوى حق قدره ، وهو الروح المعنوى الذى هو أمضى أسلحة الحرب ، وسلمنا يقيناً بتفوق المسلمين على أعدائهم بهذا العامل ، فان حساب هذا التفوق لا يمكن أن يكون عفوا واعتباطاً ، بل لابد من حساب دقيق .

وحتى لو جعلنا دلائل آيات الله — جل شأنه — مقياسنا فى هذا الأمر ونسبة تقديره لآمنا بأن الطاقة المعنوية وهى فى ذروتها تمكن لواحد من المؤمنين أن يهزم عشرة من المشركين ، وذلك من قوله تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » (٢) .

لو جعلنا ذلك مقياساً لكان بلوغ هذه الطاقة أمراً عسيراً ، وهو لا يتيسر أبداً إلا للصفوة المختارة من المجاهدين فى حال ارتقائهم قمة الروح ، وفى أحسن الظروف المادية أيضاً ، وهو أمر لا يبلغ إليه أحد من البشر إلا فى أحيان نادرة تشبه أن تكون لها معونة من المعجزات ، أو تكون هى نفسها المعجزات .

---

(١) الناسخ والمنسوخ ص ١٥٤ .

(٢) سورة الأنفال : ٦٥ .

وربما كان هؤلاء المسلمون المتأهبون لهذه المعركة قرب بدر فى الصبر والعزم والقوة فى مثل الرتبة الأولى لصفوة مختارة من المجاهدين – ولا شك فى ذلك ولاسيما وهم حول النبي ذاته – ولكنهم لم يكونوا فى الظروف المادية إلا فى أسوأ الأحوال من حيث العدد والسلاح والدربة على القتال ، وحتى الاستعداد لخوض معركة تفرض عليهم مهما كان معهم من سلاح ، وهم لم يخرجوا من المدينة سراعاً بلا قوة إلا لاعتراض العير.

فلا بد إذن من أن تتحدد نسبة تفوقهم بسبب الروح المعنوى وحده بغير النسبة التى أوردتها الآية الكريمة ، وأن تكون فى أفضل الأحوال إلى الضعف مثلا ، ويبدو مع ذلك أن الضعف كثير .

أى أن كل رجل منهم يغلب رجلين ، وهى أيضا قوة خارقة : ولاسيما إذا كان فى الحساب أن محاربا من المشاة – وليس بيده غير سيف أو عصا – يغلب فارسين ، ليس له عدتها ولا قوتها ولا سلاحهما .

وقد تحددت هذه النسبة الجديدة – رحمة بالطاقة البشرية وتحذيرا لها من الاغترار – فى قوله سبحانه وتعالى :

« الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين»(١) .

وبهذا الحساب فان قوى المسلمين المادية والمعنوية المحشودة معهم للتقدم إلى ساحة بدر قد قدر لها – بأقصى ما فى الحساب البشرى – أن تهزم ستمائة من المشركين ، وهو تقدير جد كريم ، على بقاء الاحتمال الأول وهو أن هؤلاء الثلثمائة الذى هم مع النبي يكون فى قدرتهم أن يغلبوا ثلاثة آلاف : لكن لابد أن يكونوا كلهم من الحواريين .

---

(١) سورة الأنفال : ٦٦ .

وبعد هذا كله ، فما هو موجز الأمر ؟

إنه جيش من المشركين يتكون من ألف مقاتل ، وجيش من المسلمين يتكون من ثلثمائة ، يقودهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الجيش الإسلامى يتقدم إلى أول معركة يخوضها مع الشرك وجها لوجه ، ويلتقى فيها النبى ذاته بأشراف مكة الذين خرجوا عن بكرة أبيهم للقائه .

ولو قدر للمسلمين أن يخسروا هذه المعركة الأولى لم تقم لهم قائمة من بعد .

ولم يكن هذا تقديرنا ولا تقدير أحد من الناس غريب عن المعركة ، ولكنه كان تقدير رسول الله ذاته وهو يلجأ إلى الله مبتهلا فى ساحة المعركة يقول :

« اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد»(١) .

* * *

ومهما يكن الظن فى نصر المؤمنين وهزيمة المشركين قد راود نفوس المسلمين ، فان القوى المادية والمقاييس المألوفة لايتسنى للعقل والمنطق أن يخالفا فيها وقائع التجارب وموازين الأشياء .

وإذن فلا بد من عامل آخر يحقق للمسلمين أن يظفروا ، وللإسلام أن يبقى ، وكذلك دون أن يصاب المسلمون إلا بأذى قليل ، يبقى بعده الرجال ليكروا ويقاتلوا ، وهو عامل لابد أن يكون من غير القوى البشرية ماديها ومعنويها ، إذ هذه كلها قد عرف مداها .

أى أنه لابد أن تغشى المعركة قوى خفية من الملائكة – كما حدث – لتثبت هؤلاء وترعب أولئك ، وتخضع رقاب المشركين وجماجم رءوسهم لمشافر السيوف ومصالت الآجال .

ولقد كان ذلك ، فأمد الله رسوله والمسلمين بجند من الملائكة غيرت وجه المعركة وأسلمت مناحر المشركين ورقابهم لحدائد المسلمين .

---

(١) صحيح البخارى : ٧٣/٥ .

ولقد صدق الله حين يقول :

« إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » (١) .

ولعل أمرا ذا بال — غير ما قدمناه كله — سيزيد المعركة حرجا أمام المسلمين ويكون معوقا لحريتهم فى قتل من يلقون من الأعداء ، فقد قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم تقديرا صادقا أنه ربما لقى الابن المسلم أباه المشرك فى المعركة أو الأب المسلم ابنه المشرك ، وكذلك ربما لقى الأخ أخاه والصديق صديقه ، وكان من التقدير الحق الصحيح أن قريشا لابد أن تسوق أمامها بنى هاشم ومن بقى هناك فى مكة من بنى عبد المطلب ، وممن كانوا يخفون إسلامهم تقية وحرجا .

وكان كل تقدير من هذه الأمور صحيحا واقعا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على حرج شديد فيما ظنه كائناً لامحالة ، فأمر صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يكون الضرب على بصيرة ، بل إنه نهى عن قتل بعض الناس وسماهم لهم بأسمائهم(٢) إذا كانوا فى صفوف الأعداء .

وهكذا أخذ الواردون على الحتوف من أصحاب رسول الله حذرهم الشديد أن يخالفوا أمر رسول الله .

---

(١) سورة الأنفال : ١٠ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٦٢٩/١ .



إلى بدر



إلى بدر

ثم استشار النبي أصحابه فى العمل الذى يتخذونه لهذا الموقف الخطير بعد أن خرجوا من المدينة فسمعوا بمسير قريش هذا المسير ، وكان ذلك عملا بمبدأ الشورى الذى أوصى به الكتاب الكريم ودلت عليه سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام فى أخذه بما يشير عليه أصحابه به مهما كانت النتائج ، كما حدث فى أحد من بعد بدر .

وقد تكلم كثير من المهاجرين فأحسنوا ، وكان من هؤلاء الذين خطبوا فى القوم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق ، كانا فى أول من تكلم من الناس فقالا وأحسنا . ثم قام المقداد بن عمرو فقال :

يا رسول الله . امض لما أراد الله ؛ فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا . إننا معكما مقاتلون ؛ فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فلما قال المقداد ذلك قال له الرسول خيرا وأثنى عليه ودعا له(٢) .

---

(١) برك الغماد . بكسر الباء وفتحها وتسكين الراء : فى أقاصى الحجر والبرك : حجارة مثل حجارة الحرة خشنة وعرة يصعب المسلك عليها (معجم البلدان : برك)

٢) سيرة ابن هشام : ٦١٤/١ .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل يتمادى فى الاستشارة لانه يريد ما يقول الأنصار ليستجلى موقفهم قبل أن يورطهم معه فى القتال . وقد كانت شروط بيعة العقبة — كما عرفنا غير مرة — حماية النبي من أى عدوان يقع عليه داخل ديارهم ، لا أن يقوموا هم بحرب خارج المدينة ، فقال النبي لهم بعد كلمة المقداد :

« أشيروا على أيها الناس»(١) .

وعرف الأنصار ما يريده الرسول ، وأنه إنما يقصدهم هم باستمراره فى الاستشارة ، وقد فرغ المهاجرون من إبداء آرائهم ، دون أن يصر على أمر دون الأنصار .

فبادر سعد بن معاذ الذى كانت بيده رايتهم ، فسارع فى فنون من القول الجميل — كما يقول أهل السير — وكان فيما قال :

لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، وعلى السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالله لو استعرضت هذا البحر لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء ، فلعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا يا رسول الله على بركة الله تعالى(٢) .

ولمح الرسول من كلام سعد واستقبال الأنصار لقوله أنهم راضون بما قاله فأشرق وجهه بالسرور فقال « سيروا وأبشروا ، فان الله عز وجل قد وعدنى إحدى الطائفتين ، ووالله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » (٣) .

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٦١٥ .
(٢) جوامع السيرة : ١٠٩ ، زاد المعاد :٨٦/٢
(٣) زاد المعاد :٨٦/٢

ولقد برهن الرسول عليه الصلاة والسلام فى جميع تصرفاته على عبقرية حربية فذة . إذ لم يرض — من أول الأمر ونهايته — أن يكون جيشه خليطا من المسلمين والمشركين . كما كان أهل مكة ، إذ ساقت أمامها بنى هاشم وبنى عبدالمطلب جميعا — ممن كانوا باقين فى مكة — وقد حدثت عائشة رضى الله عنها قالت :

خرج رسول الله إلى بدر ، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل كانت تذكر فيه جرأة ونجدة فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لأتبعك وأصيب معك . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أتؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : لا . قال « فارجع فلن نستعين بمشرك »

ثم أدركه الرجل بالشجرة فقال مثل مقالته . ثم أدركه بالبيداء فقال « أتؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : نعم . قال « انطلق »(١) .

وهكذا فعل رسول الله ما ينبغي أن يسلكه كل قائد ماهر يذهب إلى الميدان ، ثم لم يسمح لقوته بالتقدم من وادى ذفران على يمين الصفراء (٢) قبل أن يستطلع موقف العدو لمعرفة المعلومات الكافية عن قوته ومواقعه حتى يقرر خطته طبقا لما يعرف . وليأمن على نفسه وجيشه خطر المفاجأة .

ومن أجل ذلك أرسل النبي (دورية) للاستطلاع ، تتألف من على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ، ومعهم نفر قليل من المسلمين . للتوجه إلى ماء بدر لاستطلاع أخبار المشركين .

وحتى ذلك الحين لم يكن المسلمون قد فقدوا الأمل بعد فى القبض على القافلة . فقد ظنوا أن مكانها أقرب إليهم من جيش مكة . ولكن المفاجأة هزتهم

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٣٥٩/١ .

(٢) الصفراء : واد كثير النخل والزرع والماء ، سلكه رسول الله غير مرة ، وبينه وبين بدر مرحله ، وهى لجهينة والأنصار وبنى فهر ونهد (معجم البلدان : الصفراء)

حين عادت هذه (الدورية) ومعها غلامان من قريش كانا قد انفصلا عن الجيش القرشي ليستقوا الماء ، فأخبرا النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشا قد اتخذت موقعها وراء الكثيب الذى بالعدوة القصوى .

وكان هذان الغلامان هما : أسلم غلام بنى الحجاج من سهم . وعريض أبو يسار غلام بنى العاص من أمية(١) ، فلما حضرا بين يدى الرسول استجوبهم بنفسه فأجاباه .

قال الرسول : كم القوم ؟

فقالا : كثير عددهم ، شديد بأسهم .

فسألهما : «كم عدتهم ؟ »

فقالا : لا ندرى .

فقال لهما : «كم تنحرون من الجزر كل يوم ؟ » .

قالا : يوما تسعا ويوما عشرا .

فاستنبط رسول الله صلى الله عليه وسلم – مما جرت به العادة فى الإطعام – أنهم ما بين التسعمائة والألف . وحين أخبره الغلامان أن أشراف قريش جميعا قد جاءوا فى هذا الجيش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو البخترى بن هشام وحكيم ابن حزام ونوفل بن خويلد والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل ابن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود وغيرهم من الكبراء والأشراف – حين علم الرسول أن هؤلاء قد جاءوا التفت إلى المسلمين قائلا لهم :

« هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » (٢) .

---

(١) جوامع السيرة : ١١٠

(٢) تاريخ الطبرى : ٤٣٧/٢ .

وكان أهل مكة منذ خرجوا منها ينحرون كل يوم من الجزور التى ساقوها لطعامهم عشرا أو تسعا ، فنحر أبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البخترى بن هشام الأسدى والحارث بن عامر بن نوفل .

كل من هؤلاء نحر على التوالى عشرا ، سوى أمية وشيبة فقد نحر كل منهما تسعا ، واشترك نبيه ومنبه فى عشر ، فهذه سبعة أيام على الطريق نحروا فيها ثمانية وسبعين جزورا أطعموا بها الجيش ، فاذا كانت المدة أسبوعين حتى وصلوا إلى العدوة القصوى فقد نحروا أكثر من ضعف هذا العدد من الجزور .

ثم كان معهم العباس بن عبد المطلب : قد اضطروه كما اضطروا بنى هاشم الباقين فى مكة للخروج معهم . فاضطروا العباس أن ينحر عشرا كما اضطروا كذلك حكيم بن حزام أن ينحر ليكون من المطعمين .

وقد قيل إن عشر العباس نحرها يوم الوقعة وإبان القتال فيها فأذن الله أن لم يأكل أحد منها . وأكفئت القدور بلحمها حين أصاب قريشا ما أصابها .

ثم كان أن ذم الله سبحانه هؤلاء المطعمين ، ماعدا من اضطروهم إلى النحر والإطعام — بقوله سبحانه « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم »(١)

وكان اثنان من الصحابة قد مضيا فنزلا بدرا فى الوقت الذى عادت فيه (دورية) الاستطلاع بالغلامين . هما بسبس بن عمرو وعدى بن الزغباء ، كان الرسول قد بعثهما أيضا يتجسسان له الأخبار ، فمضيا حتى نزلا بدرا ، فأناخا إلى تل هناك بقرب الماء . وأخذا دلوا لهما ليستقيا .

وبينما هما على الماء إذ سمعا جاريتين من جوارى الأعراب الذين ينزلون على تلك المياه تتخاصمان :

---

(١) سورة محمد : ١ .

فقالت إحداهما للأخرى : أعطينى دينى

فقالت لها صاحبتها : إنما تأتى العير غدا أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الدين .

وكان بجوارهما رجل أعرابى يقال له « مجدى بن عمرو » فصدقهما فيما قالتا من انتظار العير وقرب ورودها ، ثم خلص بينهما وكفهما عن الخصام حتى تأتى العير فتسدد إحداهما دينها للأخرى .

وإذ سمع مبعوثا رسول الله ذلك وأكداه عادا إلى رسول الله بما علما فأخبراه من فورهما .

ولكن القافلة المنتظرة لم يقدر لها أن تجىء إلى بدر ، فان قائدها أبا سفيان — وكان شديد الحذر والحيلة — سبق العير يتلمس الأخبار بنفسه مخافة أن يكون محمد وأصحابه قد عملوا على اعتراضه فى الطريق أو سبقوه إلى بدر .

وقبل أن يرد أبو سفيان ماء بدر صادف فى طريقه مجدى بن عمرو ، ذلك الأعرابى الذى كان قريبا من الماء الذى استقى منه صاحبا رسول الله وتخاصمت عنده الجاريتان .

وسأل أبو سفيان مجدى بن عمرو قائلا له : هل رأيت هنا أحدا ؟

فأجاب مجدى : أنه لم ير غير راكبين أناخا إلى هذا التل ونزلا إلى ذلك الماء، ثم أشار إلى حيث أناخ الرجلان .

وأسرع أبو سفيان إلى ذلك المكان الذى أناخا فيه ، يسأل تجاربه فى قيافة الآثار وكان خبيرا بها، وتفحص المناخ، فأخذ روثا من بعيريهما فوجد فيه نوى، فعرف أنه من علائف يثرب ، ومهما كان أبو سفيان لا يعرف من هما الرجلان وهل هما من أصحاب محمد أم من غيرهم ، فانه حذر الأمر وخافه وأسرع راجعا إلى قافلته ، ثم مال بها عن الطريق المعتاد آخذا ساحل البحر وساقها سوقا عنيفا ، فنجا بقافلته كلها .

وأصبح الغد والمسلمون فى انتظار مجىء أبى سفيان ، فاذا الأخبار تصل إليهم أنه قد فاتهم وأن القافلة نجت بأكلها ، وأن مقاتلة قريش هم الذين مايزالون على مقربة منهم وهم فى العدوة القصوى .

وإذن لقد أصاب أبو سفيان من حذره للرصد المترقب له فى بدر ، فمضى بعيدا عن تلك المياه وسلك منخفض الطريق قريبا من الساحل .

حتى إذا دنا من الحجاز جعل يتجسس الأخبار ويسأل كل من يلقى من الركبان تخوفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان : أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فاطمأن إلى الحذر الذى حذره وخافه ومضى فى طريقه الجديد (١) .

وكان لابد أن تضيق نفوس بعض القوم من المسلمين لهذا الذى ضاع من الأمل العريض فى المغنم ، وأن يشير بعضهم بأن يعودوا إلى المدينة ، مادام قد فاتهم هذا الذى خرجوا له .

ولكن الأمر كان قد قضى له وجعل الله فيه أمرا من الحتم أن يحدث ، رغب هؤلاء أو لم يرغبوا ، وذلك فى قوله سبحانه :

« وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين (٢) » .

فحيث فاتت الطائفة الهينة المرتجاة فلابد من ذات الشوكة مهما ضاقت النفوس وزلزلت القلوب . وكذلك قضى الله ، فحين بعث النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام فى عصابة من أصحابه إلى بدر ، ولم يكونوا يحسبون أن قريشا خرجت لهم كل هذا الخروج — رجعوا إلى رسول الله يخبرونه بما صارت إليه الأمور .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢/٤٢٧

(٢) سورة الأنفال : ٧

أما أبو سفيان فلم يكد يضمن لنفسه وقافلته النجاة حتى أرسل إلى جيش قريش بالعدوة القصوى يقول لهم :

إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم ، فقد نجوت بها ، فارجعوا .

ووجدت مقالة أبي سفيان هوى وقبولا فى نفوس كثير من قريش ولا سيما عقلائهم ، وعلى الفور رجع الأخنس بن شريق الثقفى بجميع بنى زهرة ، وكان حليفا مطاعا فيهم فقال : إنما خرجتم تمنعون أموالكم وقد نجت .

بل ربما أشار الأخنس على قريش جميعا أن ترجع ، فعصوه فرجع هو وبنو زهرة ، فلم يشهد بدرا زهرى قط .

ولقد اغتبطت بنو زهرة — فيما بعد — برأى الأخنس ، فلم يزل فيهم معظما مطاعا (١) .

وكذلك لم يكن قد نفر مع قريش أحد من بنى عدى بن كعب ، فلم يحضر قط بدرا مع المشركين عدوى ولا زهرى أصلا .

ثم أرادت بنو هاشم الرجوع أيضا فاشتد عليهم أبو جهل بن هشام وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

ومضى أبو جهل يقول :

والله لا نرجع حتى نرد بدرا — وكانت بدر موسما من مواسم العرب ، تجتمع لهم بها سوق كل عام فنقيم عليها ثلاثا ، وننحر الجزر . ونطعم الطعام . ونسقى الخمر . وتعزف علينا القيان . وتسمع بنا العرب . فلا يزالون يهابوننا أبدا (٢) .

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٨٦
(٢) تاريخ الطبرى : ٢/٤٣٨

وأصاخ القوم لدعوة أبي جهل وجمعه حتى يقيموا على بدر ثلاثا ينحرون الجزر ويطعمون الطعام ويشربون الخمر وتعزف عليهم القيان وتسمع بهم العرب وبمسيرهم فلا يزالون يهابونهم بعدها أبدا .

ثم قام بعد أبي جهل سهيل بن عمرو يخطب الناس ويحضهم على النفير — وكان سهيل خطيبا مفوها — فكان مما قال :

يا آل غالب أتاركون أنتم محمدا وأصحابه يأخذون عيركم ؟ من أراد مالا فهذا مال ، ومن أراد قوة فهذه قوة .

فكان سهيل ممن حرض القوم مع أبي جهل على القتال(1) .

وهكذا كان رأى أبي جهل ونداؤه . ورأى سهيل وقوله ، وهكذا سمعت لهما قريش واستجابت لهما ونزلت على هواهما ، وقد غرهم أن العير قد نجت وأن أموالهم سلمت إليهم .

وقد يكون بعض القوم قد تردد قليلا وتروى فى الأمر ، ولكنهم خافوا أن يعلنوا ما رأوه من العود إلى مكة مثلما عاد بنو زهرة فيتهمونهم بالجبن من الناس ، ومن أبي جهل المتفحش الثرثار ، وبذلك أخذ جيش المشركين يتحرك فى اتجاه بدر .

وقد ظهر للأعين بكل جلاء — فيما بعد — أن إفلات العير دون أن تقع فى قبضة المسلمين كان خيرا لهم وللدين ، قد أراده الله لهم وله ، برغم ما كان قد أحزن بعضهم ، وذلك لأمور :

أولها : أن وقوع العير فى قبضة المسلمين الذين هم فى خارج المدينة كان لابد أن يحمل قريشا على الاستماتة فى الدفاع عنها أو استردادها ، وربما أصاب المسلمين من ذلك أذى شديد .

---

(1) سير اعلام النبلاء : ١٤١/١ .

وثانيها : أن نجاة العير أدت إلى تخلى بنى زهرة عن القتال إذ رجع الأخنس ابن شريق بهم جميعا — كما ذكرنا من قبل — وكانوا قد خرجوا مع القوم ، ثم أوقعت نجاة العير ترددا خفيا فى نفوس من خافوا أن يتهموا بالجبن والخوف فمضوا مع القوم على غيظ ممن رموهم بذلك ، وكذلك كان حال الذين مضوا معهم لدافع العصبية لا غير ، فنقصت بذلك كله قوة المشركين وحدث فيها تخلخل مخيف .

وثالثها : أن الله رحم المسلمين فوقاهم شر الاندفاع وراء المغانم الباردة السهلة . وحماهم أن تتعرض نفوسهم لمفاتن الطمع . وصفوفهم لمخاطر التفرق والانحلال .

ورابعها : أنه لا نزاع فى أن نصر المسلمين على جيوش الشرك والأوثان كان أهم للإسلام وأجدى على مستقبله من غنيمة قافلة تجارية مهما كان فيها من أموال .



حَوْمَةِ القِتَالِ

حومة القتال

وكان من البديه فى الرأى بعد أن علم كل من الجيشين بوضع عدوه وموقفه أن يتسابقا إلى آبار المياه الموجودة فى نواحي بدر كلها ، باعتبار المياه من العوامل الضرورية الأولية فى حرب تنشب فى الصحراء ، فما لم تتوفر هذه المياه فان من الحتم أن يبيد جيش برمته مهما كان ضخما إذا لم يحصل على مايكفيه منها .

وقد قدر لجيش المسلمين — مع التجاوز فى تسميته بجيش — فوصل إلى منطقة الآبار قبل جيش المشركين بوقت قليل ، لعله نصف نهار ، وكان فى تقدير قريش أن تصل إلى المياه وتعسكر على عيونها لتمنع المسلمين منها وتلجئهم إلى الارتداد .

وكان أن بدلت السماء ظن قريش . فبينما اقتربوا من بدر واقترب كذلك المسلمون أرسلت السماء سحبا مثقلة حافلة بالغيوث الثقيلة فصبت أثقالها على الزاحفين من الناحيتين .

وسرعان ما تحولت الأرض التى يسير عليها المشركون إلى أوحال وأغوار ، فكلما انتزعوا قدما أو رجلا غاصت قدم ورجل ؛ وأصبح من العسير عليهم أن يتقدموا بها مهما بذلوا من جهود .

وأما أرض المسلمين فقد أصابتها أطراف السحب بمطر خفيف وكانت أرضهم رملة لا أوحالا فتلبدت الأرض تحتهم وسهلت لهم مضاعفة السير ،

فساروا وهم فى بهجة وانتعاش ، وتعثّر المشركون ، ووقفوا ليتخلصوا من الأذى والأضرار .

وعلى إثر وصول المسلمين إلى بدر عشاء تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم صوب الماء ، حتى إذا كان على أدنى مكان منه وقف عنده ثم قال : « أشيروا على فى المنزل » .

وتقدم الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح — وكان رجلا عالما ببدر ومائها وكل قليب فيها فقال :

يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلكه الله وليس لنا أن نتقدم عنه ولا نتأخر ، هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال له رسول الله : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » .

فقال الحباب : يا رسول الله ، فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم — أى أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة — فننزله ، ثم نغور ماوراءه من المياه والآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه فنشرب ولايشربون .

ولما كان الأمر شورى — كما أسلفنا من قبل ولا سيا فى مهام الأمور — فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبل الرأى من الحباب بن المنذر ورحب به ، ثم أمر — على الفور — بتنفيذ ما أشار ، حين اتضح له صواب الرأى فيه .

وكأنما كان هذا الأمر الذى فتح فيه باب الرأى درسا يعلم المسلمين كيف يجدون منافذ السلامة فى أوقات اضطرارهم وعند مآزقهم ، وهم لايجدون هذه المنافذ إلا بتبادل الآراء والنزول على أحسنها وأكثرها صوابا .

ومن المحقق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثقة من النصر ، وذلك بوعد الله الذى سبق له ، ولكنه ترك الناس يرون لأنفسهم ويدبرون لأمورهم حتى يصير عندهم تبادل الرأى عادة والمشورة خلقا ، فانه إن غاب

هو صلى الله عليه وسلم وامتنعت مع غيابه أخبار السماء ، فانه لابدمن أن يرجع الناس إلى عقولهم وإلى تجاربهم ليضمنوا لأنفسهم الفوز والنجاة .

وإذ تم بناء الحوض على أغزر الآبار وأعذبها ماء ، ولم يكن قد مضى غير شطر من الليل جاء سعد بن معاذ حامل راية الأنصار ثم قال :

يا نبي الله . نبني لك عريشا من جريد تكون فيه ، ونعد لك ركائبك ، ثم نلقى عدونا . فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا . وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك . يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك(١) .

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحب راية الأنصار ما قال فأثنى عليه ودعا له بخير . ثم أمر ببناء العريش .

ولكن النبي — قبل أن يمضى إلى عريشه حين تم بناءه — مشى على موضع الموقعة التي ستكون جزءا جزءا . فعرض على أصحابه مصارع رءوس الكفر من قريش مصرعا مصرعا . يقول « هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان » فما عدا واحد منهم مضجعه الذى حده رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) .

ولم يدع رسول الله أصحابه دون أن يسوى صفوفهم ويعدلها ، فكان يمر وفى يده قدح(٣) يعدل به القوم . فمر بسواد بن غزية حليف بنى النجار فرآه النبي متقدما عن الصف فطعن فى بطنه بالقدح وقال له « استو ياسواد بن غزية » .

فقال سواد : يا رسول الله ، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق .

---

(١) سيرة ابن هشام :١/ ٦٢٠

(٢) جوامع السيرة : ١١٢

(٣) القدح - بكسر فسكون : السهم قبل أن يراش ويركب نصله .

فأراد النبي أن يأخذ سواد منه قوده ويطعنه بالقدح كما طعنه . فاعتنق رسول الله ، فدعا له بخير ثم مضى إلى العريش .

وإنه ليبدو من اختلاف السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يلزم العريش طول المعركة ، إذ ليس معنى بناء عريش له أن ينقطع القائد عن المعركة التي يحضرها ويديرها ، فبرغم ما قيل من أنهم صنعوا له عريشا . فقد رووا أنه كان أشد الناس بأسا ، وكان أقرب إلى العدو من كل الناس ، ولا يمكن أن يكون هذا الوصف إلا لمن يزاول القتال ويغشى صفوف المحاربين .

وقد قال على بن أبي طالب رضى الله عنه فى ذلك :

لما أن كان يوم بدر وحضر البأس اتقينا برسول الله ، فكان من أشد الناس بأساً ، وما كان منا أحد أقرب إلى العدو منه (١) .

* * *

وفوق كل إعجاب وتقدير يستحق موقف المسلمين هنا :

فهم أولا يعلمون أن قريشا تفوقهم فى العدد ، وأنها على ثلاثة أمثالهم . مع التفوق فى العدة والسلاح ، وهم مع كل هذا الذى علموه واستيقنوه قد اعتزموا على لقائها وقتالها .

ثم هاهم أولاء يرون الغنيمة قد فاتتهم وأفلتت القافلة منهم ، فلم يصبح لهم مطمع قريب يذهبون وراءه أو يحفزهم للقتال ، ولكنهم على ذلك يؤيدون النبي ويسترسلون فى طاعته ويعززونه وينصرونه .

ومهما ترددت بعض النفوس بين الأمل الباهت فى النصر ، والخوف الماثل فى الهزيمة ، فهم ينسون نفوسهم . ويفكرون فى نبيهم . ويخشون أن يقع فى أيدى الأعداء ، ولا شئ يشغلهم غير هذا الخوف ، ولذلك فهم قد مهدوا له سبيل الرجوع آمنا إلى إخوانهم الذين تركوهم فى المدينة من المسلمين .

(١) تاريخ الطبرى : ٢/٤٢٦

ولقد فرغوا من الاعتقاد الجازم بأن من وراءهم من الذين لم يخرجوا من المدينة كانوا أشد منهم نصرة لرسول الله وحبا له ، فلم يكن الذين خرجوا أكثر إيمانا ولا حبا من الذين لم يخرجوا .

ومهما ذهب الباحث المحقق إلى جانب من جوانب هذا الأمر — فانه كله يدعو إلى الإعجاب والدهشة ، ويضئ للقلوب ليريها وهج الأنوار التى يشعلها الإيمان .

* * *

ونزل المشركون منازل القتال بعد أن رأوا ما أجزع نفوسهم من تغوير المسلمين للآبار والمياه التى عرفوها من قبل من مياه بدر ، وقد وثقوا — حين رأوا ما رأوا — أنه لم يعد مطمع لأحد منهم فى الارتواء إلا من البئر التى أبقاها المسلمون وحدها وبنوا عليها لهم حوضا ، ثم وقف حراسها يحمونه من كل وارد من الأعداء .

ولم يكادوا يستقرون فى مواقعهم الجديدة حتى بعثوا عمير بن وهب الجمحى يتقصى لهم أخبار المسلمين ويرى منازلهم ، فركب فرسه ثم جعل يجول حول معسكر النبي على مرأى بعيد . ثم رجع إليهم ببشراه لهم يقول :

ثلثمائة رجل ، يزيدون قليلا أو ينقصون . ولكن ، أمهلونى حتى أنظر ، أللقوم كمين أو مدد ؟

ثم ضرب عمرو بن وهب بفرسه مرة ثانية فى الوادى وجعل يتقلب فى أنحائه ويقرب من المسلمين ويبعد ، فلم ير أحدا من حولهم من أى ناحية يكون مددا لهم أو كمينا ، ولكنه إذ اقترب من المسلمين فقد رجع عن رأيه الأول أو عدله فرجع إلى قريش يقول لهم :

ماوجدت شيئا ، ولكنى رأيت البلايا تحمل المنايا ! نواضح(١) يثرب تحمل

---

(١) النواضح : الابل عامة .

الموت الناقع ، فان أصابوا مثل عددهم منكم فما خيرة العيش بعد ذلك ؟ فانظرو رأيكم ، فانهم قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، فلا يقتل منهم رجل قبل أن يقتل رجلا منكم .

ولقد كان جديرا بالمشركين أن يفكروا طويلا فيما هم مقدمون عليه ، مهما كان المسلمون أقل منهم عددا وقوة ، فليست المهارة فى الحرب باقتحامها دون بصيرة .

ذلك التفكير كان جديرا بالمشركين مخافة أن يقتل المسلمون عددا منهم مساويا لهم ، ثم لابد أن هذا العدد سيتناول بعض أشراف مكة ، أو يتناولهم هم جميعا ، وسوف لا يقصدون إلا لغرمائهم من الرؤساء والأشراف وذوى البغى والبطش ، وإذا حدث ذلك — ولابد أن يحدث كله أو أكثره — فان مكة لن تظل على مكانتها التى هى لها فى الجزيرة العربية كلها .

ولقد حدث ذلك الذى كان جديرا — وعلى الأقل بعقلائهم — أن يفكروا فيه ، ففكروا وقلبوا الأمور ، ووقف حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة يخطبان فى القوم ويهيبان بهم أن يرجعوا ، فلا تقع حرب ، فأبى حمق أبى جهل أن يدع القوم ليسمعوا لهم أو ينزلوا على آرائهم ، وساعده نفر من أشد المشركين كفرا وعنادا .

لقد وقف عتبة بن ربيعة على جمل أحمر له يقول :

يامعشر قريش ، إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته .

فارجعوا يا معشر قريش ، وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فان أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون .

ثم قال عتبة :

وإنى أرى قوما مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير ، ياقوم ، اعصبوها اليوم برأسي وقولوا : جبن عقبة بن ربيعة . ولقد علمتم أنى لست بأجبنكم ! (١)

ولقد كاد قول عتبة يكون رأيا ، الا أنه أبدى فيه إصرار نفسه على إثارة العرب على النبي ، فلم يكن حبه للنجاة إلا لينجو بنفسه ، أما محمد ورسالته الغراء فانه مصر على أن يحرض العرب عليهما ما أمكنه التحريض .

ثم إن أبا جهل بن هشام بن الحنظلية استشاط غضبا لهذه الدعوة من عتبة للرجوع والنكوص وقال له :

أنت تقول هذا ؟ لقد ملئت رئتك وجوفك رعبا !

فقال له عتبة :

إياى تعير بهذا : ستعلم اليوم أينا أجبن ؟ (٢)

ومضى أبو جهل لم يلتفت ، فبعث إلى عامر بن الحضرمى يقول له : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينيك ، فقم فانشد مقتل أخيك . فقام عامر صارخا :

واعمراه ! واعمراه !

وعمرو القتيل هذا هو عمرو بن الحضرمى الذى قتلته سرية عبد الله بن جحش ، رماه واقد بن عبد الله بسهم فأرداه — كما بينا من قبل فى « مفترق الطريق » .

ولقد خيل إلى أبي جهل أن المسلمين أهون عليه من الهوان . فقال لقومه قولا مضحكا تضحك منه القرون والأجيال ، قال لهم :

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/١١٦

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٢٦

خذوهم أخذا ، فاربطوهم فى الحبال ، ولا تقتلوا منهم أحدا !

وقد سخر الله به حين ظن ذلك ، فنزل فيه قوله تعالى : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » (١)

* * *

ثم هاجت وقعة بدر بنداء ابن الحضرمى وأبى جهل ، ومن أجل ذلك قالوا إن الذى هاج وقعة بدر وسائر الحروب التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مشركى قريش ما كان قتل واقد بن عبد الله التميمى لعمرو بن الحضرمى — قاله عروة بن الزبير (٢) — إذ كان ذلك فى سرية عبد الله بن جحش أول ما أصاب الناس به بعضهم بعضا من الحرب ، وكان ذلك قبل مخرج أبى سفيان وأصحابه بالعير إلى الشام .

ولكنه يبدو أن عروة بن الزبير أراد بقوله هذا بداية سلسلة الحروب . ولم يرد السبب الذى من أجله نشبت ، فانه لم يكن هناك من سبب أهم ولا أقوى من أن رسولا بعث برسالة عامة ثم عارضها قوم من حمقى قريش ، فالحرب كانت واقعة لا محالة قتل ابن الحضرمى أو لم يقتل .

ولقد بدأت ساعة الحرج بموقف أبى جهل ودعوة ابن الحضرمى على الثأر وضاع بما كان من هذا وذاك كل أمل فى التعقل والتروى ، ولم يبق مفر من الالتحام فى معركة فاصلة بين جيش الاسلام وجيش الشرك والأوثان .

ثم زحف المشركون نحو صفوف المسلمين ، واصطف الفريقان وجها لوجه — كعادتهم فى الحرب والشجاعة — وهما لا ينتظران إلا الشرارة الأولى التى تشعل نيران القتال .

---

(١) أسباب النزول بهامش الجلالين : ٢/١١٦ والآية من سورة القلم : ١٧ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٢/٤٢٠ .

وبدأ القتال – على عادة العرب – بالمبارزة ، فاندفع من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومى ، وكان رجلا سيئ الخلق شرس الطباع شديد العداوة لرسول الله ، ثم صرخ قائلا :

أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه .

فخرج له من صفوف المسلمين حمزة بن عبد المطلب ، حتى إذا التقيا ضربه حمزة بسيفه ضربة أطاحت بنصف ساقه ، فوقع الأسود على ظهره ، ولكنه ظل يزحف – ودمه يسيل – إلى الحوض ، يريد أن يبر بقسمه ويمينه ، فعالجه حمزة ثانية خر منها صريعا دون الحوض .

ولا شئ يثير ثائرة المقاتلين أكثر من رؤيتهم للدماء ! أو الأجدر أن يقال إنه لا يثير العصبية أكثر من مظهر للعداء هو آخر ما فى الجعبة من سهام ، وهو القتل ، فبدأت الحرب .

وبدأت جادة عنيفة إذ خرج بيت قرشى برمته يدعو للمبارزة حمية وعصبية مما كانوا قد تأثروا به من قول أبى جهل لسيدهم :

عتبة بن ربيعة ، وشيبة أخوه ، والوليد بن عتبة ، خرجوا يدعون أقرانهم للمبارزة ، فبرز لهم ثلاثة إخوة من الأنصار ، هم معوذ ومعاذ وعوف أبناء الحارث ، فأبى القرشيون إلا أن يبارزوا أقرانهم من قريش ، ونادى عتبة ابن ربيعة قائلا :

ما لنا منكم حاجة ، نريد قومنا . . . يا محمد ، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا ومن بنى عمنا من بنى عبد المطلب .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبه ويرميه ببنى عبد المطلب ، وهل هم إلا صناديد قريش ؟ فأمر أن يخرج لهم ثلاثة من بنى عبد المطلب ، فنادى عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب

ابن عبد المطلب ، ناداهم الرسول صلوات الله عليه ، كل واحد منهم باسمه فبرزوا :

كل قرن من هؤلاء برز إلى قرنه ، والمبارزة — يومئذاك — كانت مزدوجة من طرفين ، فكل واحد يبارز واحدا ، ثم هم جميعا — من ناحية أخرى يعاون بعضهم بعضا ، حتى ينتصر فريق على فريق : لكل واحد واحد ، والثلاثة للثلاثة جميعا .

ولم يكد أبناء عبد المطلب يقابلون أقرانهم حتى قتل حمزة بن عبد المطلب قرنه شيبة بن ربيعة ، وقتل على بن أبي طالب أصغر الثلاثة سنا قرنه الوليد أصغر الثلاثة الأخرين .

وخلا ميدان المبارزة لعبيدة بن الحارث وقرنه عتبة بن ربيعة ، فأصاب كل منهما الآخر بجراح ، فجاءت حينئذ نوبة الثلاثة على الثلاثة ، فكر حمزة وعلى على عتبة فأجهزا عليه واحتملا عبيدة جريحا إلى صفوف المسلمين .

لقد وقع هذا كله فى سرعة البرق أو أسرع منه ، فدعا ذلك من نفسه إلى التحام الجيشين والتقاء الفريقين ، وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، وبعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بثمانية عشر شهرا . (١)

وإذن فيكون قد مضى على المشركين منذ قيامهم من مكة ثمانية عشر يوما أو تسعة عشر ، ويكون قد مضى على المسلمين تسعة أيام أو عشرة ، وقد قدمنا لذلك حسابه من قبل عند الموازنة بين السرعتين والمسافتين .

وقد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادة المعركة بحذق ليس له مثيل ، وربما بقى أمر من سياسته فى شئون القتال لم يزل إلى يومنا هذا من الأسس العسكرية البالغة غاية البراعة ، وذلك حين أصدر أمره إلى المقاتلة بقوله :

(١) تاريخ اليعقوبى : ٢/٤٥ ، ومروج الذهب :٢/٢٩٥ .

« إن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبال واستبقوا نبلكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

ويعنى هذا الأمر أن يؤخروا قذف السهام من الأقواس على جيوش الأعداء حتى يقتربوا منهم ، لتكون الإصابات مسددة مركزة ، وهو نفس المبدأ الذى تستخدمه الجيوش الحديثة عند إطلاق النيران ، ويعرف باسم « كبت النيران » أى حتى يصل العدو إلى متناول الرمى لتصيب كل رمية مقتلا .

ثم إن مقابلة العدو بوابل منهمر من السهام من مسافة قريبة يروع العدو ترويعا شديدا ويكسر روحه المعنوى ويجعل خسائره فادحة ، بينما يطيش الضرب على المسافات البعيدة ويكشف مواقع الرماة .

أما السلاح الأبيض فهو بطبيعة الحال سلاح القتال وجها لوجه ، ولا يلجأ إليه المقاتلون إلا إذا التحمت صفوفهم وتداخلت جموعهم ، وحينئذ يكف الرماة عن قذف سهامهم ، بينما يحمى وطيس القتال المتلاحم بالخناجر والسيوف .

وهذا المبدأ الحربى — والذى مازال إلى اليوم — هذا الذى عناه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله :

« ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

ومع ماكان يملأ نفس النبي من الإيمان والثقة بوعد الله له بالنصر فقد أشفق صلى الله عليه وسلم على المسلمين حين رأى قلة رجاله وكثرة العدو ، وحين علم ورأى عيانا أن بعض المسلمين يستشهدون .

وكان رسول الله يشرف أحيانا من عريشه وأحيانا من خارجه ، وليس معه غير أبي بكر وحده ، وسعد بن معاذ وقوم قليلون من الأنصار وقفوا على باب العريش يحرسونه . فحين رأى قلة قومه وكثرة عدوه استقبل الكعبة — وكان

المسلمون قد تحولوا إليها فى الصلاة ، واتجه إلى ربه وجعل يناشده ما وعده به ويسأله أن يتم له النصر . ثم جعل يلح فى الدعاء والتوبة ويقول :

« اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض بعد اليوم » .

ولم يزل الرسول كذلك مستقبلا القبلة يناجى ربه مادا يديه حتى سقط رداؤه . وجعل أبو بكر من ورائه يرده على منكبيه ويهيب به مشفقا قائلا له :

يانبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ما وعدك ! ولكن رسول الله استمر فى درعه يدعو ويستغيث ، ثم أدركه ما كان يدركه من الوحى ثم أفاق ملتفتا إلى أبي بكر وهو يقول :

« سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » (١)

وظل النبي فيما هو فيه من الانتباه للمعركة حينا ، والتضرع والخشية حينا آخر ، ثم خفق خفقة نعاس رأى فى خلالها استجابة الله له بالنصر ، فاتجه إلى أبي بكر وقال له : « أبشر أبا بكر ، أتاك نصر الله ، ثم تلا قوله تعالى « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم (٢) »

واندفع رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو المسلمين وصفوفهم يحرضهم على القتال والاقتحام ويقول :

---

(١) سورة القمر : ٤٥،٤٦

(٢) سورة الأنفال : ١٠

« والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة »

ثم أخذ بيده الكريمة حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا وهو يقول :

« شاهت الوجوه .. شاهت الوجوه» ثم قال لأصحابه : « شدوا »

ونفحت من روح النبي العظيم ودعوته المستجابة نفحة غمرت قلوب المسلمين فحولت قلتهم إلى كثرة ، وضعفهم إلى قوة ، وحمى الوطيس ودارت رحى الحرب ، واحتدم القتال ، واندفع المسلمون فى قوة خارقة يجزون الرءوس ، ويقطعون الرقاب ، ويستأصلون شأفة المعاندين .

ولقد علت أصوات المسلمين بذلك النشيد الذى ابتدعه من قبل بلال بن رباح ، وتتابعت الكلمة الصادقة على أفواههم يملئون بها أرجاء بدر ويقولون : أحد . أحد .

ودوت هذه الكلمة العليا أشد مما يدوى الرعد ، انطلق المسلمون بسيوفهم انطلاق العاصفة الماحقة تقتلع كل ما أتت عليه وتذره كالرميم .

وما هى إلا بعض ساعات من النهار حتى خيم الصمت على المعركة وهدأ كل شيء فيها إلا هتاف المسلمين : أحد . . أحد . ثم أسفر هذا الصمت عن أشلاء مبعثرة للمشركين قد امتلأت بها حواشى بدر وساحاتها ، ولم ينج من الموت من القوم جميعا إلا من وقع فى الأسر أو لاذ منهم بالفرار .

وربما كان عمير بن الحمام مثلا من أمثلة الاستبسال التى ظهرت من المسلمين فى بدر ، وكان أصحاب النبي جميعا مثله ، فان عمير بن الحمام لما سمع رسول الله يحض على الجهاد فيرغب فى الجنة ، كانت فى يده بعض تمرات يأكلهن ، فقال: مرحى مرحى ! أما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟

ثم رمى عمير بالتمرات من يده واقتحم القتال وهويقول :

ركضا إلى الله بغير زاد

إلا التقى وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد

وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد

ثم ظل عمير يقتل فى القوم ما شاء الله له أن يقتل ، فلما استنفد قوته وأجله وقع شهيدا (١)

وربما كان مثل عمير هذا أو أشد منه إقبالا على الجنة والاستشهاد آخرون خروا مثله شهداء ، وكان منهم عوف بن الحارث بن عفراء أخو معاذ ومعوذ . فقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يرضى الرب من عبده ؟

فقال له رسول الله : « غمسه يده فى العدو حاسرا »

فنزع عوف درعا كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل به القوم حتى خر سعيدا شهيدا (٢)

* * *

---

(١) تاريخ الطبرى :٤٤٨/٢ ، جوامع السيرة : ١١٣.

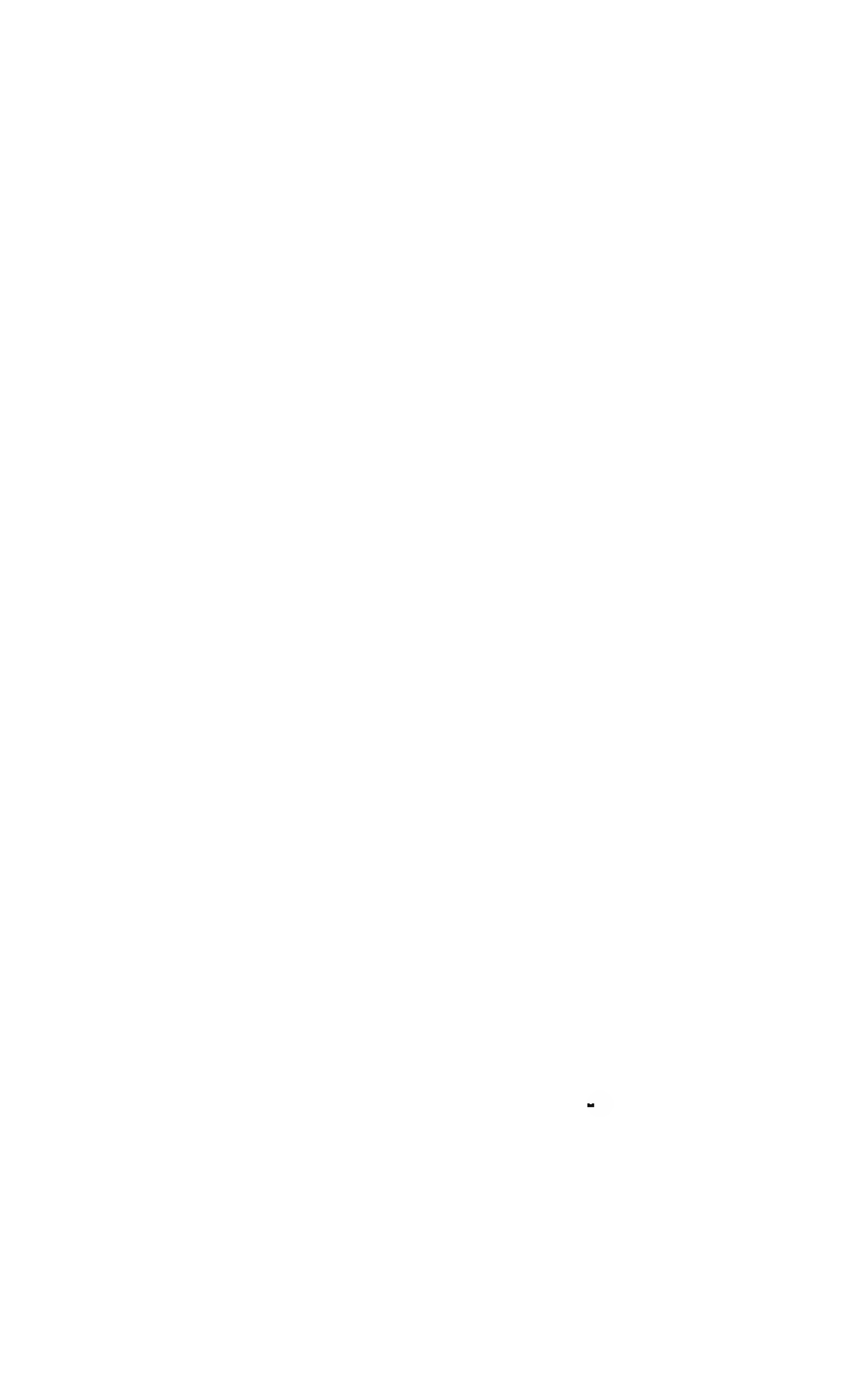
(٢) تاريخ الطبرى : ٤٤٩/٢

ولقد وضع الإسلام قواعده هذه منذ ظهر فى مكة ، وكان منها قوله تعالى . « أيحسب الإنسان أن يترك سدى »(١) أى أنه لايترك مهملا فلايكلف ولايجازى .

أما التكليف فهو واقع عليه فى الحياة الدنيا وعليه تترتب المجازاة ، ولكن هذه إن لم تقع ولم تتحقق فى الدنيا فانها ستكون فى الآخرة بلا مراء . . ولهذا لم يكن لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ولخالصة المؤمنين جميعا — شئ أشهى من الاستشهاد والموت فى سبيل الله .

---

(١) سورة القيامة : ٣٦





مَصَارِعُ الرُؤُوس



مصارع الرؤوس

مرق أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصارى مروق السهم من صفوف المسلمين إلى راية المشركين فانتزعها من يد رجل مشرك يقال له أبوعزيز ، وكان صاحب لواء المشركين بعد النضر بن الحارث . (١) وقيل كان للمشركين ثلاثة ألوية أحدها مع أبى عزيز بن عمير (٢)

ثم لم تلبث الوقعة أن أسفرت عن نصر للمسلمين كان المعجزة الفريدة فى تاريخ الحروب كلها . ولقد صدق الله سبحانه حين يقول فيها :

« إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (٣)

فهذه – فى الحق – كانت يد الله وحده ، لأن نتائج المعركة جاوزت كل عقل ومنطق . وهو سبحانه يقرر ذلك فى قوله :

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » (٤)

ونظر الأشراف والكبراء من قريش أولم يحن لهم أن ينظروا – فاذا كل امرىء يرى رأس صاحبه يهوى ، فيضيع رشده ويسلم هو الآخر رقبته من حيث لا يستطيع أن يعى لنفسه أمرا أو يرى لفراره طريقا ، فان القدر نزل يزمجر مدويا .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٦٤٦/١ ، سير أعلام النبلاء : ٣٨٥/٢

(٢) الطبقات الكبرى : ١٥/٢

(٣) سورة الأنفال : ١٢ .

(٤) سورة الأنفال : ١٧ .

ومضى المسلمون وكأنما يختار كل واحد منهم من يريد قتله من الكفرة المعاندين ، لا يلفته عنه شئ ولا ينجيه منه شئ ، وإذا كل واحد منهم يرى الرأس الذى يطلبه ويقصد إليه ، عن وعى وثبات جأش قد هوى ، قبل أن يشتد به الضرب أو يناله السيف .

* * *

وبالأمس — فى مكة — كان أمية بن خلف يعذب بلالا فى رمضاء مكة ، ويشده فى الحبال يجره بها الصبيان ، وكلما راودوا بلالا على الكفر أو على أن ينطق بسب محمد رد عليهم مراودتهم له صارخا فيهم قائلا : أحد . . أحد . .

أما اليوم فيا بؤس أمية ، فقد حان لبلال المعذب المشدود فى الحبال أن يثأر منه لربه ولنبيه ولنفسه ، ولم يدعه بلال حتى خر ممزقا صريعا .

لقد رأى أمية بن خلف عبد الرحمن بن عوف ، ويبدو أن ذلك كان فى هدأة من المعركة أو أخرياتها . وكان عبد الرحمن صديقا لأمية فى مكة وفى الجاهلية ، فناداه أمية قائلا : ياعبد عمرو - وكان هذا اسمه فى الجاهلية - فلم يرد عليه عبد الرحمن ، فقال له أمية : ياعبد الإله .

قال عبد الرحمن :

فالتفت فاذا أنا بأمية وابنه على ، وقد أخذ الأب بيد ابنه ، ومعى أدراع قد استلبتها ، وكان أمية مشرفا على الأسر ، فسألنى أن أطلب له الأمان وأن يدفع الفداء ، وقال لعبد الرحمن : نحن خير لك من أدراعك : فطرح عبد الرحمن سلبه من الدروع .

ثم قال عبد الرحمن :

فقلت : امضيا ، وأقبلت أسوقهما ، فبصر بلال بن رباح بأمية . فنادى قائلا : يا معشر الأنصار ، أمية بن خلف رأس الكفر : لا نجوت إن نجا !

قال عبد الرحمن :

فأحاطوا بأمية ، فأقبل الحباب بن المنذر ، وقد اضجعت عليه، فأدخل سيفا فقطع أصل فخذه ، فقمت عنه ، واجتمع عليه خبيب بن يساف وبلال بن رباح وهو يكرر قوله : أمية رأس الكفر ، لا نجوت إن نجا ! فضربوه حتى صرعوه .

أما ابنه على فقد قتله الحباب بن المنذر وعمار بن ياسر(١)فلم يحظ عبد الرحمن ابن عوف بأدراعه ولا احتفظ بأسيره ، وكان - فيما بعد - كلما ذكر بلالا قال :

يرحم الله بلالا : ذهبت أدراعى وفجعنى بأسيرى (٢)

ولقد كان أمية بن خلف حين جاء بدرا قد صار شيخا ثقيلا، وكان قد أجمع على القعود فى مكة دون أن يصاب بهذه الحمى التى أصابت الناس فى الخروج، فلما رأى ذلك منه عقبة بن أبي معيط جاءه بمجمرة يحملها وفيها نار وجمر حتى وضعها بن يديه وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قدمه ثم قال :

يا أبا على . استجمر ، فانما أنت من النساء !

فقال له أمية : قبحك الله ! ثم قام فتجهز فخرج مع الناس (٣) .

ثم شاهد أمية بعينيه فى بدر ما فعل المسلمون بهم ، ودارت عينه فى أول المعركة وراء رجل مسلم فعل بالقوم الأفاعيل ، فلما ألقى نفسه إلى عبد الرحمن ابن عوف سأله قائلا :

من هذا الرجل المعلم فى صدره بريشة نعامة ؟

فقال له : ذلك حمزة بن عبد المطلب

فقال أمية : ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل !

ومنذ ذلك الحين أعدت قريش لحمزة ثأرا ومثلة لو استطاعت أن تفعلهما !

(١) أنساب الأشراف : ١٩١/١ ، الدرر : ١١٩ ، زاد المعاد : ٨٩/٢ .
(٢) سيرة ابن هشام : ٦٣٢/١ .
(٣) تاريخ الطبرى : ٤٣٠/٢ .

وأبو جهل بن هشام - فرعون هذه الأمة كما سماه رسول الله - وقد أبى أن يرجع إلى مكة دون قتال ، أو ربط المسلمين بالحبال - كما كان قد رأى ونصح - ثم يشرب نخب انتصاره على مياه بدر ويطرب لغناء القيان - هذا الطاغية رأى معوذ بن عفراء الأنصارى وأخاه عوفا يهوى أولها عليه بضربة من سيفه تبتر ساقه ، ثم يعاونه أخوه ليوقعاه معانيا سكرات الموت .

ولم يكن معوذ ولا عوف يعرفان أبا جهل ، ولكنهما كان يسمعان أخبار إيذائه لرسول الله فنزلا إلى الميدان وهما لا يتمنيان غير اصطياده ولو كلفهما ذلك أن يهبا حياتهما لرسول الله . وقد فعلا .

ومنذ نزل هذان الغلامان إلى المعركة وقفا فى الصف بجنب القرشى المهاجر عبد الرحمن بن عوف ، ثم قالا له : يا عم ، أتعرف أبا جهل ؟ فانه بلغنا أنه كان كثير الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدلها عبد الرحمن عليه ، فشدا عليه معا(١) .

ويقص الطبرى أن الذى قتل أباجهل هومعاذ بن عمرو ، ولكن مهما اختلفت الأسماء على الرواة وأهل السير فان قصة مقتل هذا الطاغية قصة تشوق النفوس ، قال الطبرى :

كان معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بنى سلمة (٢) يقول :

لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه أمر بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى وقال: .. « اللهم لا يعجزنك » .

قال : فكان أول من لقى أبا جهل معاذ بن عمرو ، قال : سمعت القوم وأبو جهل محوط برجال من قومه كأنهم الشجر الملتف ، وهم يقولون: أبوالحكم لا يخلص إليه !

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٢/٢٥٩ .
(٢) سلمة : بفتح السين وكسر اللام .

قال معاذ : فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه ، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا النواة تطيح من تحت المرضخة (١) التي يدق بها النوى للعلف حين يضرب بها .

قال معاذ : وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي . وأجهضني القتال عنه . فقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي . وقد ربطها برباط . فلما آذتني وأوجعتني جعلت عليها رجلي ثم تمطيت بها حتى طرحتها (٢) .

ويعلق الذهبي على ما فعله معاذ هذا بقوله :

هذا والله الشجاعة . لا كآخر إن خدش بسهم ينقطع قلبه وتخور قواه (٣)

قال معاذ أو الطبرى : ثم مر بأبي جهل وهو عقير مجروح معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق . وقاتل معوذ حتى قتل ، فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتمس في القتلى ، وقد قال لهم فيما بلغني :

« انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح بركبته ، فاني ازدحمت أنا وهو يوما على مأدبة لعبد الله بن جدعان ، ونحن غلامان ، وكنت أشف منه بيسير . فدفعته فوقع على ركبتيه فجحش - أي خدش - في إحداهما جحشا لم يزل أثره فيه بعد » .

وقال عبد الله بن مسعود :

فوجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه ، وقد كان لزمني مرة بمكة فآذاني ولكزني . ثم قلت : هل أخزاك الله ياعدو الله !

(١) المرضخة : الحجر الثقيل الذي يكسر به النوى .
(٢) تاريخ الطبرى : ٢/٤٥٤
(٣) سير أعلام النبلاء : ١/١٨٠

قال أبوجهل : وبماذا أخزانى ؟ ليس على رجل قتله قومه من عار ! أخبرنى عن الغلبة .

فقلت : لله ولرسوله

فقال أبو جهل : لقد ارتقيت يارويعى الغنم مرتقى صعبا .

قال عبد الله : فاحتززت رأسه ، ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، هذا رأس عدو الله أبى جهل .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آلله الذى لا إله غيره ؟ » — وكانت هذه يمين رسول الله - قال - قلت : نعم والله الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يديه ، فحمد الله (١) .

وحدث عبد الرحمن بن عوف حديثا طريفا عن مقتل أبى جهل قال :

إنى لواقف يوم بدرفى الصف فنظرت فاذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما ، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما ، فغمزنى أحدهما فقال : ياعم ، أتعرف أبا جهل ؟

قلت : نعم ، ما حاجتك ؟

قال : أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى نفسى بيده إن رأيته لا يفارق سواده سوادى حتى يموت الأعجل منا .

قال عبد الرحمن : فتعجبت لذلك .

فغمزنى الآخر فقال مثلها . فلم ألبث أن نظرت إلى أبى جهل وهو يجول فى الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما .

قال عبد الرحمن : فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبراه .

(١) تاريخ الطبرى : ٢/٤٥٦

فقال لهما رسول الله : أيكما قتله ؟

فقال كل منهما : أنا قتلته

فقال : مسحتما سيفيكما ؟

قالا : لا

فنظر رسول الله فى السيفين فقال : كلاكما قتله . وكانا معاذ بن عمرو ومعاذ بن عفراء (١)

ولعل هذا كله الذى رواه أصحاب النبي قد حدث ، فتكاثرت على أبي جهل ثلاثة سيوف من الستة التى كانت مع المسلمين فاشترك فى دمه أكثر من واحد ليتوزع ثواب مصرعه على الأنصار والمهاجرين .

وان لأبى جهل بن هشام عند الله ورسوله سوءات وغباوات فقد كان أقسم قديما أنه لو رأى محمداً ساجداً لوطئ عنقه ، فجاءه ثم نكص على عقبيه ، فقيل له : مالك ! فقال : إن بينى وبينه لخقولا من نار وهولا وأجنحة .

وقد نزل فى ذلك قوله تعالى « أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرأيت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى(٢)»

ولئن كان ذلك قد نزل ينعى على أبي جهل ما فعل من نهى النبي عن الصلاة فلقد حقق الله وعيده فيه إذ قال « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة »(٣) ولم يرعو أبوجهل حتى لقى عقاب الله له فى الدنيا « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى (٤) » .

(١) سير أعلام النبلاء : ١/١٨٠
(٢) سورة العلق : ١٤
(٣) سورة العلق : ١٦
(٤) تفسير البيضاوى : سورة العلق

ولقد كان حمق أبي جهل قد امتد حتى أثار ثائرة نساء بني عبد المطلب ، إذ كانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا تخوفت فيها على مكة إذ يبرز رجالها إلى مصارعهم بعد ثلاثة أيام ، فقصتها لأخيها العباس . ثم شاعت الرؤيا حتى بلغت أباجهل، فقال للعباس : أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ قد زعمت عاتكة فى رؤياها أن من رأته فى الرؤيا قد قال : انفروا فى ثلاث فستربص بكم هذه الثلاث . فان يكن ماقالت حقا فسيكون . وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب .

وأنكر العباس حين سمع من أبي جهل هذا القول أن يكون قد سمع من عاتكة شيئا ، وكان ذلك من العباس تقية وحرجا . فلما أمسى الناس لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتت العباس فقالت أأقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع . ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت !

قال العباس :

فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا حديد مغضب . أرى أن قد فاتنى منه أمر أحب أن أدركه منه ، فدخلت المسجد فرأيته . فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ماقال فأقع به — وكان رجلا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر — إذ خرج نحو باب المسجد يشتد .

قال العباس : فقلت فى نفسي : ماله ، لعنه الله ! أكل هذا فرقاً من أن أشاتمه ؟

قال : وإذا هو قد سمع مالم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو الغفارى وهو يصرخ ببطن الوادى (١) .

(١) تاريخ الطبرى : ٢/٤٢٩ .

وإن قصص هذا الرجل لاتنتهى ، وهى كلها تدل على غلظته وحمقه وسفاهته التى لا تقف عند حد ولا تنتهى إلى نهاية ، وقد قيل من هذا القصص أنه — لعنه الله — مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهويصلى ، فقال : ألم أنهك ؟ فأغلظ له رسول الله . فقال : أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ! فنزل فيه قوله تعالى « فليدع ناديه سندع الزبانية » (١)

ومن أغرب الجهل الذى كان عليه أبوجهل أنه دعا قبل اللقاء يوم بدر قائلا اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لانعرفه فأحنه الغداة ! فكان جزاؤه أن أهلكه الله(٢)وأهلك معه أخاه العاص بن هشام وابن عمهما مسعود بن أبى أمية أيضا(٣) وقد قتل الأول عمر بن الخطاب وهو خاله (٤)

وأما عقبة بن أبى معيط فقد دفع فى يد المسلمين أسيرا فأمر رسول الله بقتله ، فقال عدو الله للرسول : أتقتلنى يامحمد قال : نعم ، ثم أقبل رسول الله على أصحابه فقال :

« أتدرون ما صنع هذا بى ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى وجعل يغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينى تسقطان ، ثم مرة أخرى جاء بسلا (٥) شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد خلف المقام فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى (٦) .

* * *

وعبيدة بن سعيد بن العاص التقى به الزبير بن العوام ، وإذا عبيدة مدجج

(١) جوامع السيرة : ١١٣ .
(٢) تفسير الجلالين ، الآية ٦٩ من سورة الأنفال .
(٣) جوامع السيرة : ١٤٥
(٤) الدرر : ١١٨ .
(٥) السلا ، على وزن الحصا : المشيمة التى يكون فيها الولد .
(٦) الدرر : ١٢١

فى السلاح ، لا يرى منه إلا الحدق ، فحمل عليه الزبير بحربته فطعنه فى عينه فمات ، فوضع الزبير رجله على الحربة ثم تمطى واجتهد أن ينزعها فلم يستطع إلا وقد انثنى طرفاها .

واقتنى رسول الله حربة الزبير ، ثم توارثها الخلفاء واحدا بعد واحد ، حتى صارت إلى عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل (١)

* * *

حقا لقد أهلك الله هؤلاء وغيرهم من أئمة الكفر ، وهو الذى رماهم ، فلقد أنزل ملائكته يثبتون قلوب المؤمنين حين يلقى الله الرعب فى قلوب المشركين لتنطلق سيوف النبى وأصحابه تحز الأعناق وتبتر الأيدى فتطيح الرءوس وتتبعثر الأشلاء .

ولقد كان فى قدرة الله سبحانه أن يقى المسلمين مضايق الكرب وأن لا يكبدهم مشقة الجهاد ، وأن يأخذ بناصرهم من غير أن يكافحوا ، ولكن الله أراد لعباده المؤمنين ان يكونوا أقوياء وأن يستندوا إلى عقولهم وتجاربهم ، وأن يعرفوا سنة الله التى لا تتبدل وفطرة الحياة التى لا تتغير — ولا سيما إذا لم يكن معهم الرسل الذين ينصرون بالمعجزات ـ فيأخذوا بالأسباب من حيث لا ينسون الاعتماد عليه والتبتل إليه ، لأن بيده وحده المعونة على الخير ، وبمشيئته وحده تتحقق نتائج الأسباب .

ولم يجعل الله من منطق الحياة أن يتحقق الظفر والانتصار لمن لم تتوافر لديهم الأسباب ، ولا لمن يجاهدوا ، فتضيق بهم الأيام وتنفرج ، وتحيق الكروب وتنكشف ، حتى يتعودوا الصبر ويبذلوا غاية ماعندهم من تفكير وتدبير .

ولو أننا وازنا بين ما قاله أصحاب الرسول صلوات الله عليه وهم فى وادى

(١) زاد المعاد ج٢ص٩٠ .

ذفران قبل المعركة التي فاجأتهم بما قاله بنو إسرائيل لموسى عليه السلام حينما طلب منهم أن يجاهدوا ليدخلوا أرض الحثيين ، لو وازنا بين أقوال هؤلاء وأقوال هؤلاء لوجدنا بونا واسع المدى بين الايمان والتخاذل ، وبين صحابة رسول الله وبنى إسرائيل ، وهو ما لم يفت أصحاب رسول الله أن يذكروه له وهو خارج من المدينة قاصدا لقاء العير .

ولقد جرى المنطق فى الحالين على سجيته ، فلزم النبي أصحابه ورق لهم واستغاث من أجلهم حين أطاعوه ، أما موسى فحين خالفوه وعصوه فانه دعا الله أن يفرق بينه وبينهم ، فأوقعهم الله فى التيه ، وطيب قلب نبيه واستجاب له ، وفى ذلك يقول سبحانه « قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين »(١) .

أما المسلمون فقد أخذوا بأسباب الجهاد ، ولم يتخلفوا عن النبي ، وهم يعلمون بما كانوا عليه من الضعف والقلة فى بدر ولكنهم لم يبالوا بها لثقتهم فى وعد الله وطاعتهم لرسوله الكريم .

* * *

ولقد كان فضل الله على رسوله وقومه فى بدر بأن أعانهم بألف من الملائكة مردفين . حين طلب الرسول واستغاث ، ثم أتبعهم الله بثلاثة آلاف منزلين ، فهانت المعركة على المسلمين وفعلوا بأعدائهم ما شاءوا وكأنهم كانوا لاعبين .

ولو كان الكرب ضاق بهم وعاجلهم المشركون ظلما وبغيا لأعانهم الله بما ينصرهم من ملائكة بالغة ما بلغت أعدادهم ، وإن الله ليمن على المسلمين بذلك فيقول :

(١) سورة المائدة الآية ٢٦ .

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » (١).

ولو أننا نظرنا إلى الآية الكريمة نظرة فاحصة لتبين لنا من نظمها ما يدل على شمول علم القرآن بفن (التكتيك) الحربى إذ الآية الكريمة توحى إلى قائد المعركة أن لايلقى بكل رجاله مرة واحدة فى المعركة مهما كانت قوتهم وحتى لو كانوا ملائكة .

بل يرسل إلى المعركة القوة الكافية عند البداية ، ثم يحتفظ عنده بالاحتياطى لها ، ليكون هذا الاحتياطى معدا ليقذف به فى المعركة إذا طلبت المعركة الامداد ولا يلقى بثقل الجيش كله إلا فى الخطوب الشداد .

والمؤمنون يعلمون أن كلمة « كن » من الله ومجرد توجه الإرادة إلى ما يريد أن يكون فانما هو كاف لأن يتحقق الكائن الذى يريده الله .

ولكن هذا التنسيق فى فضل الله إنما كان تعليما ليوزع المؤمنون طاقاتهم البشرية بمثل ما يتعلمون منه . ولن يزال البشر فى حاجة دائمة إلى تعليم :

وحتى الآية الأولى التى ختمت بقوله تعالى : « بألف من الملائكة مردفين » قيل فيها إنهم يرادف بعضهم بعضا ، أى أرسالا : جماعة بعد جماعة . فلم يأتوا دفعة واحدة .

والإمداد بألف يتفق فيه كل المفسرين ، أما ما جاء بعده فقد اختلفوا فيه : أكان فى بدر أم كان فى أحد من بعد ، ثم قالوا إنه كان فى الأخيرة موقوفا على شرط الصبر والتقوى .

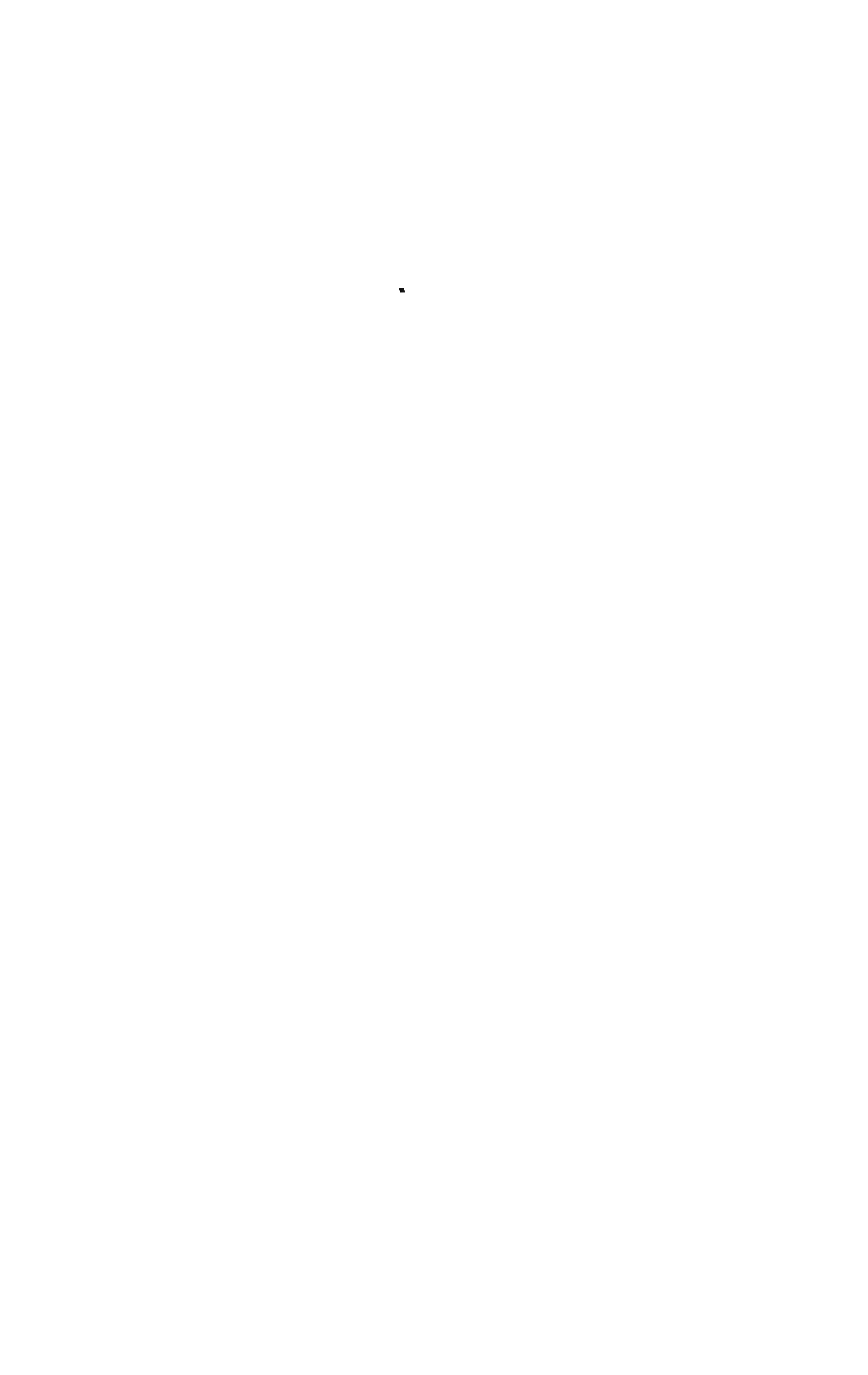
(١) سورة الانفال : الآية ١٠

ولعل من أجود ما قيل : قول ابن القيم :

إن التدريج فى الإمداد ومتابعته أحسن موقعا وأقوى للنفوس وأبهج لها من أن يأتى مرة واحدة . وهو بمنزلة متابعة الوحى ونزوله مرة بعد مرة ، وهذا كله إن كانت الآيات فى بدر .

على أنه قد روى عن ابن عباس : أن الملائكة لم تقاتل فى يوم من الأيام سوى يوم بدر . وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددا ومددا لايضربون ، وتكون هذه حينئذ إحدى خصائص بدر الكبرى(١) ، وفضلها على كل الغزوات

(١) تاريخ الطبرى ج٢ص ٤٥٤ .





أَهْلِ الْقَلِيبُ

أَهلُ القَليبْ

وفرغ المسلمون من المعركة كلها فى بعض اليوم السابع عشر من رمضان أو فى معظمه ، حتى إذا انتهت أخذوا يحفرون فى الرمال قليبا ويجرون إليه جثث القتلى من المشركين ويرمونها فيه ثم يطمون عليها التراب .

فلما أتموا جرهم إليه وجمعهم فيه ، إلا أمية بن خلف فقد أسرع إليه العفن فانتفخ فى درعه حتى ملأها ، فذهبوا إليه ليحركوه فجعل بدنه يتفرق قطعا ، فتركوه وألقوا عليه التراب والحجارة حتى غيبوه (١) . وتم بذلك الجر والجمع والدفن هوان الذين قال الله فيهم :

« الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس » (٢)

وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف على قتلى القليب ثم قال :

« يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس وخذلتمونى ونصرنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس »

«ياعتبة بن ربيعة وياشيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام — واستمر يذكر من فى القليب — هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فانى وجدت ما وعدنى ربى حقا ؟ ! »

(١) تاريخ الطبرى ج٢ص٤٥٦ .
(٢) سورة الانفال الآية ٤٧

فقال له بعض أصحابه :

يارسول الله ، أتكلم قوما موتى ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون الجواب ، ولقد علموا أن ما وعدتهم حق » (١)

وطالما دعا رسول الله هؤلاء الذين ناداهم إلى أن يسلموا وهو فى مكة قبل الهجرة ، وطالما هددتهم آيات القرآن وأنذرتهم ، ولم يكونوا يلقونها بغير السخرية والاستهزاء .

وربما كان الغرور يجيز لهم أن يستهزئوا ، والنبى فى مكة لم يتبعه إلا القليل ، أما وقد رأوا آيات نصره ودلائل انخذالهم ، وظهور أمر النبوة فى المدينة والجزيرة كلها فقد كان من أطيش الطيش أن يقدموا على ما لم يقدموا على مثله والنبى فى مكة لم يكن قد علا دينه ، ولم يكن قد أمر أن يمتشق له حساما .

ولقد كان رسول الله دائما يذكر الناس بسابق نذره ليعلموا مصائرهم بما يقولون وما يفعلون ، أهم إلى النجاة أم هم إلى الهلاك ؟ !

ولقد ظن المسلمون حين عاتب النبى أهل القليب بما قال — ظنوا أنهم لايسمعون أو أن التاريخ لايرتبط آخره بأوله ، فقالوا له يارسول الله ، أتنادى قوما أنتنوا ؟ وكان عمر بن الخطاب — كعادته — هو الذى اجترأ فسأل النبى عن ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ! ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى »

وهناك شىء آخر من أهم سياسات الميادين فى الحرب ، لا يغفل عنه قائد مدرب ولا سياسى حكيم ، وقد أدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأول وهلة وعمل له :

(١) تاريخ الطبرى ج٢ ص ٤٥٦ — زاد المعاد ج٢ص٩٠.

ذلك أن المعركة الحربية لا تنتهي آثارها بتناثر الأشلاء فى جوانب الميدان ، بل يجب أن يستمر العمل فى جمع الأشلاء ومواراة الجثث مخافة أن تتعفن فتهب منها ريح تؤذى وتنتشر منها أوبئة وأمراض . ولقد كانت ساحة بدر معرضة لهذه المخاطر كلها . وكانت مياهها آيلة لا محالة إلى أن تصير سما زعافا ، فأدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم واجب القائد الحكيم إلى النهاية حتى يقى أمته من الأمراض والسموم .

فلعل هذه الأمور لم يتنبه لها أهل السير والتاريخ من قبل ، وإنما يتنبه لها قائد معركة وراعي أمة . يظل دائب العمل باحثا عن خير الناس .

* * *

ولم يمض الأمر هكذا سهلا هينا دون حرج أو شفقة ، فقد نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد سحب عتبة بن ربيعة إلى القليب ، فاذا أبو حذيفة مهشم بن عتبة قد وقف فى الناس وعليه كآبة وحزن ، وكان هذا الابن قد أسلم وفارق أباه وهاجر إلى النبي فى المدينة ثم انتظم فى سلك المحاربين من أصحابه فى بدر فرأى مصرع أبيه .

لقد نظر رسول الله فى وجه أبى حذيفة حين اكتأب وتغير ، فقال له : يا أبا حذيفة . لعلك دخلك من شأن أبيك شيء !

فقال أبو حذيفة : لا والله يانبي الله ، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام . فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجوه أحزننى ذلك .

ولم يكن كل هذا مافعله أبو حذيفة بن عتبة ، بل إنه لما رآه مصرا على حرب رسول الله ثم رآه فى بدر فى صفوف المشركين دعاه إلى البراز ، ولكنهما لم يلتقيا .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم كل ذلك من أبي حذيفة فدعا له بخير وقال له خيرا (١)

ثم كان أشد حرجا من هذا الموقف مافعله أبو عبيدة عامر بن الجراح ، فقد كان خامس خمسة أسلموا ، كلهم فى ساعة واحدة مترادفين قبل دخول النبي دار الأرقم ، ثم هاجر أبو عبيدة وشهد مع النبي بدرا .

وفى المعركة لقى أبو عبيدة أباه عبدالله بن الجراح فى صفوف المشركين وتقدم كل منهما إلى الآخر يريد قتله ، ولم يلن قلب الأب للدين ولا للبنوة فلم ير الابن إلا أن يضرب أباه فضربه ضربة خر منها صريعا (٢)

* * *

وسرعان ماوقعت المدينة ومكة فى حالين مختلفين :

أما المدينة فقد بلغتها البشرى بأن الله قد أظفر النبي وصحبه بذات الشوكة ليكون النصر مؤزرا خالدا ، وقد بعث رسول الله إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من النصر ببشيرين : هما عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ، بعث رسول الله أولهما إلى أهل العالية من المدينة ، وبعث ثانيهما إلى أهل الواطئة فيها .

ولكن اليوم الذى بلغت فيه بشرى النصر إلى المدينة كان مختلطا بحزن وأسى — كما هى الحال فى الدنيا لا تكون صفوا خالصا أبدا وحتى لأنبيائه — ولعلنا نرى الأنبياء أكثر الناس مشقة وابتلاء .

فلقد وافى الخبر المدينة وأصحاب النبي فيها يسوون التراب على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت عند عثمان بن عفان ، وكان عثمان قد خلفه رسول الله عندها ليمرضها ويرعاها .

(١) تاريخ الطبرى ج٢ص ٤٥٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء ج١ ص٤ .

وأقبل زيد بن حارثة فوقف فى المصلى فغشيه الناس ، وهو يقول :

قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وزمعة بن الأسود وأبو البخترى بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج . وكان ابنه أسامة بين غاشية الناس فكأنه دهش لما يقول أبوه ، فقال له : ياأبه ، أحق هذا ؟

قال : نعم والله يابنى .(١)

وكان رسول الله قد أمر فنودى يوم بدر : ألا إنه ليس لأحد من القوم عندى منة إلا لأبى البخترى . فمن كان أخذه فليخل سبيله ، وكان رسول الله قد أمنه فوجد فى القتلى (٢)

وأما مكة فقد كان فى الطريق إليها الحيسمان بن عبد الله الخزاعى ، وقيل عمرو بن جحدم الفهرى (٣) ، حتى إذا بلغها — قبل أن يبلغها أحد غيره — أخبر أهلها بما أصابهم فى زعمائهم وأشرافهم ، فصعق الناس .

• • •

ولم يبلغ الخبر أبا لهب وحسب ، بل بلغته النكبة أيضا ، ولم ينجه أنه لم يذهب إلى بدر ، ولم يجر إلى القليب . فقد كان الله سبحانه أعد له سورة من النذر وحده فلم يكن له من الوعيد نجاة .

ومع أنه لم يخرج مع الناس إلى بدر فلقد عد أحد قتلاها ، ولو لم يخرج ليقاتل مع المشركين ، فانه حين بلغه خبر الوقعة التى محقت الكفر واستأصلت أهله أصابته الحمى ، فمات منها بعد سبعة أيام ، ولم يكن قد جف على قتلى بدر تراب القليب

وربما أورد الطبرى فى موت أبى لهب قصة طريفة نؤثر أن ننقلها لطرافتها ، قال :

(١) تاريخ الطبرى ج٢ص٤٥٨ .
(٢) الطبقات الكبرى ج٢ص٢٣ .
(٣) تاريخ اليعقوبى ج٢ص٤٦ .

قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمت أم الفضل — زوجة العباس — وأسلمت ، وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه .

وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، وكذلك صنعوا ، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلا ، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه ، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزا .

قال أبو رافع : وكنت رجلا ضعيفا ، وكنت أعمل القداح ، أنحتها فى حجرة زمزم ، فوالله إنى لجالس فيها أنحت القداح وعندى أم الفضل جالسة وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه بشر ، حتى جلس على طنب الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهرى ، فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال أبو لهب : هلم إلى يابن أخى فعندك الخبر فجلس إليه والناس قيام عليه يسمعون مايقول :

قال أبو لهب : يابن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟

فقال أبو سفيان بن الحارث : لا شيء والله ، إن كان إلا لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسرون كيف شاءوا ، وايم الله مع ذلك مالمت الناس ، لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض ، ما تبقى شيئا ، ولا يقوم لها شيء .

قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدى ثم قلت : تلك الملائكة !

قال : فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة ، فثاورته ووثبت عليه ، فاحتملنى فضرب بى الأرض ثم برك على يضربنى — وكنت رجلا ضعيفا — فقامت أم الفضل — زوجة العباس — إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فشجت فى رأسه شجة منكرة وقالت له : تستضعفه أن غاب عنه سيده ؟ !

فقام أبو لهب موليا ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله عز وجل بالعدسة(١) فقتلته .

ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثا ما يدفنانه حتى أنتن فى بيته – وكانت قريش تتقى العدسة وعدواها كما يتقى الناس الطاعون – حتى قال لهما رجل من قريش : ويحكما ، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن فى بيته لا تغيبانه ؟ !

فقالا : إنا نخشى هذه القرحة .

فقال لهما : فانطلقا فأنا معكما . فما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ، ما يمسونه ، ثم احتملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه (٢) وقيل إنهم استأجروا عليه بعض السودان حتى دفنوه (٣)

ولقد كان الله أنزل فى أبى لهب هذا قوله سبحانه « تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد » (٤)

وكان بعض الناس يقول : فاذا آمن أبو لهب وامرأته أم جميل فماذا يكون مصير هذه السورة ؟

فلما مات أبو لهب وامرأته كافرين آمن بعض من كانوا يترددون فى حكم السورة القاطع عليهما بتأبيد الكفر والخسران .

(١) العدسة : قرحة قاتلة كالطاعون .
(٢) تاريخ الطبرى ج٢ ص٤٦١ .
(٣) تفسير البيضاوى سورة المسد .
(٤) سورة المسد .

ولم يرجع إلى مكة من المشركين إلا من تهيأ له أن يفر من الضرب أو الأسر فعاد إليها فردا جريحا أو ذليلا ، وكان منهم – كما تقدم في حديث الطبرى عن أبي لهب – أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الشاعر الذى كان يهاجيه حسان ابن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم قديما ثم أسلم أبو سفيان من بعد .

وكان ممن فر أول من فر من المشركين خالد بن الأعلم الخزاعى وهو الشاعر الكذوب الذى كان من شعره قوله فى الجاهلية :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

فكان أول من فر يوم بدر ، فلم يقبل حتى يدمى قدمه ولم ينتظر حتى يدمى عقبه ، ولكن المسلمين أدركوه فأسروه، فخاب وخاب ما ادعاه فى شعره من كاذب الشجاعة والاقدام (١) .

فلما توافدت أخبار المعركة والفرار على مكة قامت قريش كلها فى مكة تنوح على قتلاها . فلما غابوا فى ذلك وتمادوا سار بعضهم إلى بعض أن يستمسكوا ولا يفعلوا فيبلغ ذلك محمدا وأصحابه فيشمت بكم بل لا تبعثوا فى فداء أسراكم فى عجلة حتى لا يتأبى ويتشدد عليكم محمد فى الفداء . (٢)

وهكذا عادت مكة كلها قليبا مدفونا : فأما الذين قتلوا فى بدر فقد طمروا هناك تحت رمالها ، وأما الذين فروا فقد عادوا فى أكفان الذل والعار ، إلا من فكر منهم أن يؤمن ، وأما الذين بقوا على كفرهم فيهم فقد أصابهم فوق ما أصاب الموتى من المهانة والصغار .

ولم ينج من المعركة إلا نفر رحمهم الله من قريش ، كان قد كتب لهم أن يسلموا فيما بعد ، وكان منهم حكيم بن حزام ، فقد كان ممن ورد على حوض

(١) تاريخ الطبرى ج٢ ص٤٤١ .
(٢) تاريخ الطبرى ج٢ص ٤٤١ .

اثناه فى بدر يركب فرسا له اسمها « الوجيه » فهم أصحاب النبى أن يرشقوهم بالنبال ، فقال لهم رسول الله : دعوهم .

فما ورد منهم رجل إلا قتل فى يومه ، إلا ما كان من حظ حكيم بن حزام فانه نجا على فرسه . ثم أسلم قبل فتح مكة وحسن إسلامه، ثم كان إذا اجتهد فى يمينه قال : لا والذى نجانى يوم بدر!





الغنائم والأسرى

الغنائم والأسرى

كان أول ما أحلت الغنائم للأمة الإسلامية فى الحرب ما أحل لها من غنائم العير التى غنمها عبدالله بن جحش بعد أن قتل قائدها عمرو بن الحضرمى ، وكان الاختلاف الذى عرفناه من قبل عليها حتى قسمها رسول الله .

والحق إنه ما لم يوضع نظام ثابت محكم لقسمة الغنائم والأنفال — وقد قيل فى بعض الأقوال إن الغنائم والأنفال شىء واحد — فان الخذلان يسرع إلى صفوف الناس ، لأن الدنيا واقتناء منافعها لم يزل مطلب أكثر النفوس ما لم يتمكن منها الإيمان .

ولقد كان من أحكم الأنظمة وأروع القوانين ما قضى به الإسلام من تحريم الغلول ، وهو أن تمتد يد قائد أو جندى إلى شىء من الغنائم قل أو كثر فيستأثر به لنفسه خلسة ، من قبل أن تجمع الغنائم وتحصى وتقسم طبقا للنظام المفروض

ولو لم يوضع مثل هذا النظام لجرؤ الجند وغيرهم على السلب والنهب ، فتنعكس الأمور من إقبال إلى إدبار ومن انتصار إلى انكسار ، ثم يتخذ القدر الزاحف جسوره إلى الهزيمة من أيدى الأنصار حين يعجز أن يصنعها من أيدى العدو والمغير .

وذلك ما حدث فى غزوة أحد بعد غزوة بدر ، فلم تستطع شجاعة أكثر المسلمين أن ترد الهزيمة إلى نصر حين اندفع حماة الظهر يحصلون الغنائم

ويجمعونها ، فوقعت بهم الكارثة أول ما وقعت ، ثم أصابت من ورائهم بقية الناس

ولقد حدث أن تهافت الناس على اقتسام الغنائم فى سرية عبدالله بن جحش ، ثم اختلفوا على ماحصلوا عليه منها فى بدر ، وأراد كل فريق أن يستأثر بها لنفسه ، ولكن رسول الله قسمها أخماساً كما أمره الله ، حيث يكون منها سهم لله ورسوله وأربعة أسهم لمن شهد الحرب أو كان محسوباً أنه شهدها لعذر منعه عن الخروج .

أما الغلول فقد نهى عنه القرآن ، وحاسب عليه النبي حساباً شديداً ، ولم يجعل لأحد من الناس ولا لنفسه هو أن يغل ، مهما كان المال المطموع فيه شيئاً زهيداً ، ومهما كان الطامع شجاعاً مبلياً فى الحرب كل البلاء .

ولقد حدث مصعب بن سعد عن أبيه فى حديث له قال فيه : « وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة فاذا فيها سيف فأخذته فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له : نفلنيه فأنا من قد علمته .

قال : « رده من حيث أخذته » .

فانطلقت حتى أردت أن ألقيه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعطنيه .

قال : فشد صوته وقال « رده من حيث أخذته » (١)

كما حدث مالك بن ربيعة قال :

أصبت سيف بنى عائذ من مخزوم الذى يسمى المرزبان يوم بدر ، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا ما فى أيديهم أقبلت حتى ألقيته فى النفل . ثم أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم للأرقم بن أبى الأرقم حين سأله إياه (٢) .

(١) الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم ص١٥٢.
(٢) سيرة ابن هشام ج١ص٦٤٢ .

وهكذا بدرت بادرة من بعض المسلمين فى غنائم بدر ، فاختلفوا فيها قبل أن يقسم بينهم رسول الله :

فقال الشبان : هى لنا لأنا باشرنا القتال .

وقال الشيوخ : كنا ردءاً لكم تحت الرايات ولو انكشفتم لفئتم إلينا فلا تستأثروا بها

وقالوا : أرادها خالصة لهم أولئك الذين استبسلوا وأصلوا الأعداء الهزيمة النكراء .

وقالوا : أرادها من أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى عريشه لئلا ينال العدو منه غرة .

وقالوا : أرادها الذين استولوا على العسكر والنهب .

وكان الاختلاف هكذا شديداً واسعاً ، ولكن كل فريق من هؤلاء لم يجرؤ على اقتناص شيء منها ، فسألوا رسول الله أن يجعل لهم ذلك وردوا إليه الأمر كله .

ومن هنا لم ينشأ عن الخلاف مشاكل ولا عداوات ما داموا قد أسلموا الأمر لله ورسوله ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه . وكذلك شأن كل جماعة ترد أمور خلافها إلى قوادها وعقلائها ، فإنها تنجو من المطامع والعداوات .

وتوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه فنزل عليه قوله تعالى « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » . (١)

ولقد أخبر عبادة بن الصامت — وهو أحد من حضروا بدراً من نقباء الأنصار — عن غنائم بدر فكان مما قال :

(١) الدرر ص ١١٦ — تفسير الجلالين — سورة الأنفال الآية ١

اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين على السواء . (١)

وكذلك — حين انتهت المعركة وأصبحت ساحة القتال فى بدر نقية من الأشلاء — جمع رسول الله صفوف أصحابه وحملوا غنائمهم وأسراهم على ماغنموا من الأفراس والرواحل ومضوا إلى الصفراء فى طريق المدينة حيث يبلغونها بعد ثلاثة أيام لتستقبلهم المدينة ظافرين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتخذها عادة ، فكان إذا ظهر على قوم أقام فى مكانه ثلاثاً ثم ارتحل (٢) . وهى سياسة حربية أخرى لرسول الله ليثبت فى أمكنة النصر أقدام المسلمين ، ولا يدع جيباً ولا مدداً لعدوه إلا قضى عليه قبل أن يعود .

حتى إذا بلغ النبي مضيق الصفراء قسم فيها الغنائم بين أصحابه غير خمس الله ورسوله ، فلما بلغ الروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين (٣) . ثم مضى إلى المدينة فدخلها قبل الأسارى الذين ساقوهم بيوم (٤) .

* * *

وكما كان الأمر فى الغنائم وإحلالها للمسلمين كان أمر الأسرى ؛ فلم يكن لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض فلما أثخن رسول الله فى بدر أحل له الأسرى .

وكان عدد الذين أسروا من المشركين سبعين بعدد من قتل منهم ، فاذا كان عدد المقاتلين منهم ألفاً — كما قلنا من قبل — تبين أمر مفزع فى المعركة

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ص٦٤٢ .

(٢) زاد المعاد ج٢ص٩٠ .

(٣) سيرة ابن هشام ج١ص٦٤٣ .

(٤) تاريخ الطبرى ج٢ص ٤٦٠ .

وهو أن يفر أكثر من ثمانمائة وخمسين رجلا ، ويسلم نفسه للأسر سبعون لأن سبعين من الجيش قتلوا أو أصيبوا .

ولعل المؤرخين وأهل السير وكل من اطلع على غزوة بدر لم يختلفوا قط فى اعتبارها من المعارك الحاسمة فى التاريخ ، إذ أنها برغم القوات القليلة التى اشتركت فيها – حتى من طرف المشركين – فقد كانت فاتحة نصر متتابع للمسلمين ، ولم يقف فى سبيل نمو الإسلام وازدهاره ما حدث فى غزوة أحد من هزيمة مؤقتة لم تلبث أن كانت درساً تعلمه المسلمون .

ولم تلبث الوحدة التى أقامها النبي فى المدينة أن قويت واشتدت وصارت أنحاء الجزيرة العربية – وفيها مكة المعادية ذاتها – تنضوى تحت لوائها ، ثم كان النصر فيها مقدمة للموجة الإسلامية الدامغة التى غمرت العالم شرقاً وغرباً ، حتى بلغت تخوم الصين وشاطىء الأطلسى ثم عبرت أوروبا مع الفتوح .

ولم يكن سعد بن معاذ صاحب راية الأنصار قد رضى أن يأخذ المسلمون أسيراً واحداً – حين رأى المسلمين يقرنونهم فى الحبال – بل كان يرى أن تضرب أعناقهم جميعاً فلا يفلت منهم أحد .

وكان سعد واقفاً على باب خيمة رسول الله وعريشه متوشحاً بالسيف فى ناس من الأنصار وهو يرى المعركة ويرى انصراف بعض المسلمين لجمع الأسرى دون أن يقتلوهم فكره منهم ذلك .

ورأى رسول الله من سعد الكراهية لما يصنعون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كأنك تكره ما يصنع الناس ؟ » .

قال : أجل ، والله هى أول وقعة أوقعها الله بالمشركين . وكان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال (١) .

ولما استكمل قرن الأسرى بالحبال استشار رسول الله أصحابه فيهم – وكان قد علم رأى سعد بن معاذ أو بالأحرى رأى صاحب راية الأنصار – فلعله أراد رأى المهاجرين .

فأشار عليه اثنان منهم برأيين مختلفين : أبو بكر وعمر ، أما الصديق فأشار بأن يأخذ منهم فدية تكون للمسلمين قوة على عدوهم ثم يطلقهم لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام .

وأما عمر فقد قال : لا ، والله ما أرى الذى رأى أبوبكر ، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فان هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها .

فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جانب الرفق وأخذ بما قال أبو بكر ، ولم يهو قول عمر ، فكان رحمة لهؤلاء الأسارى الذين أسلم منهم من أسلم من بعد ، وكانت من أصلابه ذرية من المسلمين . (٢)

بل لقد كان يود لو من عليهم فقال :

« لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء لتركتهم له » (٣)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة قد دخلها فى جوار المطعم بن عدى حين آذته ثقيف .

ثم بدأت فى معاملة الأسرى منذ بدر سياسة الحسنى ، وقد قالوا إنه صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول : « أحسن إليه »

(١) زاد المعاد ج٢ص ٨٩ .
(٢) زاد المعاد ج٢ص٦٧ .
(٣) المرجع نفسه ٦٦ .

وفى حديث له صلى الله عليه وسلم «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك »

وهكذا تعلم المسلمون أن لا يطغيهم النصر حتى على أعدائهم بل يعاملونهم بالحسنى ، فلعل الله يهديهم إلى الإيمان فيخرجوا مما هم فيه .

وقد عومل لذلك أسرى بدر كلهم بالحسنى سوى اثنين أو ثلاثة (١) كانوا من جبابرة الكفر ، ولم يكن فيهم أمل فى أن يتوبوا .

أما الاثنان فهما :

النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة من بنى عبد الدار وعقبة بن أبى معيط ابن عمر بن أمية بن عبد شمس ، فقد ضرب عنقاهما . (٢)

أما عقبة فقد كان قديما فى مكة قد عمد إلى مكتل (٣) مملوء قذراً ثم ألقاه على باب رسول الله صلى عليه وسلم فبصر به طليب بن أروى بنت عبد المطلب فأخذ منه المكتل وضرب به رأسه فأمسك به عقبة وساقه إلى أروى بنت عبد المطلب أم طليب وجعل يشكو ابنها لها ، فقالت له : ومن أولى منه بذلك ؟ هو ابن خالته ، أموالنا وأنفسنا دون محمد .

فلما كان يوم بدر جاء به عبد المطلب بن سلمة الأنصارى أسيراً كان قد جمح به فرسه فأخذه عبد الله أخذا سهلا ، فأمر رسول الله بضرب عنقه ، فذل عقبة حينئذ وتباكى وقال : يا محمد ، علام أقتل من بين هؤلاء ؟

فقال رسول الله « لعداوتك لله ورسوله »

(١) أنساب الأشراف ج١ص١٤٨ .

(٢) جوامع السيرة ص ١١٤ ـ الدرر ص ١١٥ ـ انساب الأشراف ج١ص ١٤٧ .

(٣) المكتل : المسمى بالزنبيل ويعمل من الخوص .

قال : يا محمد ، من للصبية ؟

فقال : «النار»

ثم أمر به رسول الله فصلب ، فكان أول مصلوب فى الإسلام (١)

وأما النضر فكان من أشد الناس مبادأة للنبي بالتكذيب والإيذاء ، وكان صاحب أحاديث يدعى أنها أحسن مما جاء به محمد من القرآن ، قد نظر فى كتب الفرس وأقاصيصها لأنه كان يأتى ناحية الحيرة فيشترى كتب الأعاجم ، ويعود بعد أن يقرأها ويترجم ما فيها فيحدث بها أهل مكة ، ثم زاد فخالط اليهود والنصارى وأخذ يحدث بأحاديث هؤلاء ثم يقول :

أينا أحسن حديثا ؟ أنا أم محمد ؟ ويقول : إنما يأتيكم محمد بالأساطير : فأنزل الله فيه قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين » (٢)

ثم لقى النضر محمداً صلى الله عليه وسلم ذات مرة فقال : أنت الذى تزعم أنك ستوقع بقريش عن قليل ، وأن الله قد أوحى إليك بذلك ؟

فقال له رسول الله صلى عليه وسلم «نعم ، وأنت منهم » .

بل كان النضر متهكما مستهزئا دائما بالنذر فى مكة ويقول «إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء »(٣) فأنزل الله سبحانه فيه قوله : « وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » (٤) .

(١) أنساب الأشراف : ١ص ١٤٨ .
(٢) سورة الأنفال ٣١
(٣) سورة الأنفال الآية ٣٢ ــ أسباب النزول بهامش الجلالين ٢ص١١٦
(٤) سورة الأعراف ١٨٥

ثم جاء النضر يحارب النبي فى بدر فأسره المقداد بن عمرو وأمر رسول الله بضرب عنقه صبرا بالأثيل (١)

ولقد كان للنضر هذا بنت شاعرة يقال لها قتيلة ، فلما قتل أبوها كتبت شعرا وأرسلته أو أنشدته بين يدى رسول الله فى أبيها فكان مما قالت :

أمحمد ياخير ضنء كريمة من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم شعرها قال :

« أما إنى لو سمعت هذا قبل قتله لم أقتله » (٢)

هذا . وقد أحسن الدكتور شوقى ضيف فى التعليق على عتاب قتيلة هذا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها حين قال :

وليس معناه الندم ، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يقول ولا يفعل إلا حقا ، ولكن معناه :

لو شفعت عندى بهذا القول لقبلت شفاعتها . وفيه تنبيه على حق الشفاعة والضراعة . ولا سيما الاستعطاف بالشعر ، فان مكارم الأخلاق تقتضى إجازة الشاعر وتبليغه قصده (٣) .

فهذا تعليق مقبول ، إلا أننا نستأنف عليه فنقول إن مكارم الأخلاق تقتضى أحيانا أن لا يبلغ الشفيع الضارع كل ما يقصده ويرجوه ، وإنما يصرف عنه بما يرضيه ، ولا سيما إذا كانت قد جرت المقادير من قبل استشفاعه بما لا يمكن رده ولا العدول عنه ، وهو ما كان قد حدث فى النضر بن الحارث .

(١) أنساب الأشراف ج ١ص ١٣٩ .

(٢) الدرر ص ١١٥ .

(٣) انظر التعليق فى ذيل الكتاب السابق نفسه والصفحة نفسها

سياسة الفداء

ولقد فرض الفداء على أسرى غزوة بدر من المشركين ، وكان الفداء أنواعا :

فمن كان عنده مال فدى به فاداه على الفور إن كان قد حمله معه ولم يسلب منه فى المعركة إذ يصير السلب حقا للمعركة لا فداء للأسير .

ومن لم يكن عنده مال أو كان عنده وهو يعرف الخط والكتابة فقد كان فداؤه أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الخط والكتابة ، فاذا تعلموها وحذقوهما أطلق فرجع إلى مكة إن لم يدخل الإسلام .

ومن لم يكن عنده مال ولا علم بالكتابة فقد من عليه رسول الله بأن يطلق إذا أراد أن يعود إلى أهله بمكة .

وقد قيل أن رسول الله لم يطلق بغير فداء إلا واحدا أو اثنين ، وقالوا إن أحدهما هو أبو عزة الشاعر ، كان قد وقع أسيرا فى هذا اليوم ثم من عليه رسول الله فأطلقه بعد أن أخذ عليه عهدا أن لا يعين عليه .

وانطلق أبو عزة إلى قومه . ولكنه نقض العهد الذى أخذ عليه ، فأوقعه الله فى الأسر يوم أحد فضرب عنقه صبرا : وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعت محمدا مرتين . (١)

---

(١) جوامع السيرة ص ١٧٤ .

ثم اختلفوا فى ثانيهما ، ويرجح الواقدى أنه سهيل بن بيضاء ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ثم قال : « إلا سهيل بن بيضاء » فأتى سهيل مكة منصرفا من بدر ثم هاجر إلى المدينة من بعد (١)

وقد أخذ الفداء من مال وكتابة من ثمانية وستين رجلا (٢) . أما المال فقد جعله رسول الله من ألف درهم إلى أربعة آلاف ، وكل منهم على قدر يساره ، فكان ممن فدى بأربعة آلاف رجل يقال له : أبو وداعة بن ضبيرة السهمى ، كان له ابن تاجر كيس ذو مال اسمه المطلب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . « إن له ابنا تاجرا كيسا ذا مال ، وكأنكم به قد جاءكم فى فداء أبيه » .

فلما علمت قريش بما فرض النبي من الفداء قالت : لا تعجلوا فى فداء أسراكم ، فأظهر المطلب بن أبى وداعة عن رضاه بما قالت قريش . ولكنه قلق على أبيه فانسل من مكة فى الليل — أول متسلل — وقدم المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم ثم انطلق به .

ومن ثم أخذت قريش تبعث فى فداء الأسرى لما لم تجد من ذلك محيصا (٣) فقدم مكرز بن حفص فى فداء سهيل بن عمرو .

وكان سهيل — صاحب التاريخ المشهور ، فى الحديبية من بعد قبل أن يسلم — من أسرى بدر ، وكان خطيبا طالما قام ضد النبي بلسانه فجاء فى فدائه مكرز بن حفص . وكان عمر بن الخطاب قد أشار على النبي فيه أن تنزع ثنيتاه السفليتان ليدلع لسانه فلا يقوم على النبي خطيبا فى موطن أبدا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر :

(١) أنساب الأشراف ج١ص٢٢٦ .
(٢) تاريخ اليعقوبى ج٢ص٤٦ .
(٣) تاريخ الطبرى ج٢ص٤٦٤ .

« لا آمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا » (١)

ومع كل ذلك الذى رآه سهيل من رأفة رسول الله به فقد ظل من أعدائه والمعينين عليه حتى فتح مكة ، ثم أسلم ، فصدقت نبوءة رسول الله فيه .

وكان مع سهيل فى بدر ابنه عبد الله فلما التقى الجمعان فر الابن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم قبل أبيه (٢)

ثم كان من الأسرى الأغنياء العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . أسره أنصارى اسمه أبو اليسر كعب بن عمرو من بنى غنم(٣) وأسر معه من بنى هاشم اثنين آخرين هما عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث من بنى المطلب . فأمره النبي أن يدفع الفداء لنفسه ولابنى أخويه : عقيل ونوفل من ماله . ثم يدفع أيضا فداء حليف لهما من بنى سهم اسمه عتبة بن عمرو بن جحدم .

ووقف العباس حين طلب إليه رسول الله ذلك كله فأبى وقال : إنى كنت مسلما قبل ذلك . وإنما استكرهونى !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أعلم بشأنك ، إن يك ماتدعى حقا فالله يجزيك بذلك ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك »

فافتدى العباس نفسه بسبعين أوقية أو مائة من الذهب ، وافتدى ابنى أخويه بسبعين . ثم أعلن العباس إسلامه : أو كان مسلما — كما قال — ورجع إلى مكة وهو يكتم أنه أسلم لأمواله التى كانت له عند الناس (٤)

(١) تاريخ الطبرى ج٢ص٤٦٥ .
(٢) جوامع السيرة ص ١٢١ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٣٨ .
(٤) تاريخ اليعقوبى ج٢ص٤٦ — سير اعلام النبلاء ج٢ص٦٠ .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عرف أن العباس قد حمل معه عشرين أوقية من الذهب يستعين بها . فوقع السلب عليها وغنمها المسلمون منه فقال لرسول الله : أحسبها من فدائى .

فقال رسول الله : « لا ، ذاك شيء أعطانا الله منك »

قال : فانى ليس لى مال .

فقال له رسول الله : فأين المال الذى وضعته بمكة عند امرأتك أم الفضل ، وليس معكما أحد غيركما ؟ فقلت : إن أصبت فى سفرى فللفضل كذا ولقثم كذا ولعبد الله كذا .

قال العباس : فو الذى بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من الناس غيرها : وإنى لأعلم أنك رسول الله .

ولقد كان الأسر قد فشا فى قريش وعم كل بيوتها . كما كان القتل قد فشا فيها وعم كل البيوت . (١)

* * *

ولم يكن هذا الفداء بالمال طمعا من الإسلام فى الأموال . وإن كان أبو بكر رضى الله عنه رأى أنه يكون قوة للمسلمين : فان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح مكة قام إليه رجال من المهاجرين يسألونه أن يرد عليهم دورهم التى استولى عليها المشركون ، فلم يرد على أحد منهم داره .

وما ذلك إلا لأنهم تركوها لله وخرجوا عنها ابتغاء مرضاته . فأعاضهم عنها دورا خيرا منها فى الجنة ، فليس لهم أن يرجعوا فيما تركوه لله .

ويقول ابن القيم :

---

(١) جوامع السيرة ص ١٤٧ .

بل أبلغ من ذلك أنه لم يرخص لأحد من المهاجرين أن يقيم بمكة بعد نسكه — فى عمرة أو حجة أكثر من ثلاث ، لأنه قد ترك بلده لله وهاجر منه فليس له أن يعود يستوطنه . ولهذا رثى رسول الله لسعد بن خولة — وسماه بائسا — أن مات بمكة ، وقد دفن بها بعد هجرته منها (١) فقال صلى الله عليه وسلم :

« لكن البائس سعد بن خولة »

قد رثى له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة (٢)

* * *

ولم تكن النتائج الحربية والاقتصادية هى كل ما فعلته غزوة بدر ، بل حدثت معها نتائج علمية وثقافية ربما كانت أكثر أهمية وأعظم قيمة ، وهى نتائج تعتبر من أكبر الفرائد التى حدثت فى غزوة من الغزوات .

فقد اشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة الفداء ، فمن قدر عليه من أسرى قريش من الأغنياء افتدى به ، ومن لم يقدر وكان يعرف الخط والكتابة فعليه أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين ، فاذا وثق النبي من أنهم تعلموا أطلقه من الإسار .

وكان أهل مكة قد علمتهم التجارة أن يكتبوا وأن يحذقوا فيها ، وأما أهل المدينة فلانعزالهم عن التجارة فقد كانوا لا يكتبون ، إنما كان يكتب يهودهم ويهتمون بالعبرانية دون العربية .

ولعلها مرة فريدة كان تعليم الخط والكتابة فيها من غنائم الحروب ، وهى [illegible] للاسلام من ناحيتين

(١) زاد المعاد جـ٢ص٦٨

(٢) الاصابة جـ٢ص٢٣

أولاهما أنه يهتم بالخط والكتابة ويعرف لهما قيمتهما ، ولم يقتصر الإسلام على الحث النظرى عليهما بل جعلهما فى نطاق العمل والتنفيذ .

وثانيهما أنه جعل الخط والكتابة فى نظير المال الذى يفتدى به الأسير . فهما بذلك يعدان من أسباب الغنى .

ولقد بدأ الإسلام – أول بدئه على الإطلاق – بالقراءة والكتابة فى آيات سورة العلق الأولى « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم »(١) فكان ذلك إيذانا للعرب بانتقالهم إلى الكمال وإعلانا دينيا عاما إلى الدخول فى دور جديد ذى تيار جارف يخلق فى شواطئ الحياة مدا عاليا من العلم الخالد . ويحض دائما على الترقى فى مراتبه والتوسع فى نواحيه .

وكان هذا الإعلان الدينى أشبه بالأذان الذى ارتفع من هذا المكان نفسه من أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام يدعو الناس لحج البيت .

وإذن فقد بدأت مرتبة الإسلام بمرحلة الإنسان الكامل الذى جعل صفة الكمال قاعدته الأولى التى بنى عليها .

ولم يكن الأمر بالقراءة لإدراك صور الحروف وتصور رسوم أبجديتها . فقد لا يأتى ذلك بغير معرفة شكلية تافهة دل عليها أنف أعرابى موهوب دفعوه فى زمن عمر بن الخطاب ليتعلمها ففر منها هاربا .

وربما كان هذا فى البداية تقريرا قوليا للكتابة أو القراءة . ثم ما لبث النبى صلى الله عليه وسلم أن نفذه من فوره تنفيذا عمليا ، إذ اتخذ له عددا من الكتاب يكتبون الوحى ويدونون القرآن ويستملون منه الكتب . ثم ما لبث الإسلام أن وضع هذا العمل وضعا مساويا للحرية التى هى أعظم أقدار الحياة .

(١) سورة العلق الآيات الأولى

وقد تحقق هذا فى بدر من ناحيتين :

تحقق أولا فى فداء الأسير من أهل مكة – إن لم يكن له مال – إذا علم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة ، فكأن محو الأمية قد اشترى بالحرية والإطلاق .

وتحقق ثانيا فى محو جهالة الحر الذى تزيده الكتابة حرية واطلاقا ، وهو تقدير يزن الحصول على العلم أوأداته من الخط والكتابة بأنه مساو للحرية والحفاظ عليها والانطلاق بها ، وهو أعلى من أوزان الغنائم المادية كلها .

وقد مضى الإسلام فى تحقيق هذه المعادلة مؤكدا اقتران العلم والحرية والسلطان بحيث ينال المتعلم من مراتب الحريات ودرجات السلطان ما يتساوى مع درجة علمه وفقهه .

وجعل الإسلام جزاء من تعالى فى درجات العلم أن يعتق لو كان عبدا ، وأن يكون إماما ولو كان أعجميا .

وقد تأثر السادة الأولون بهذا الروح فى إعتاق مواليهم الذين يفك الفقة والعلم رقابهم . واتسعت حلقة السباق ، فما كادت الطبقة الأولى من الصحابة تغيب حتى تولى الموالى المعتقون فى كل البلدان مراتب الفقه والفتوى .

* * *

ولا نستطيع أن ندع هذا الفصل من سياسة الفداء دون أن نتحدث فى أمر جليل نتج عن تعلم الخط والكتابة من أسرى بدر ، وذلك هو أن زيد بن ثابت كان أحد الغلمان الذين تعلموا الخط والكتابة فى هذا الفداء . (١)

ثم كتب زيد الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أمره النبى أن يتعلم من المدينة العبرانية أو السريانية فتعلمها فى سبعة عشر يوما ، وقد كانوا جاءوا

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ ص٢٢

النبي بزيد عند مقدمه إلى المدينة فقالوا : هذا من بنى النجار . وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأها زيد على النبي صلى الله عليه وسلم فأعجبه ذلك .

وبخط زيد هذا وقراءته كتب مصحف حفصة فى عهد أبي بكر ثم بخطه دو وقراءته كتب المصحف الإمام فى عهد عثمان بن عفان ، وجمعت عليه الأمة . ولم يعد من الخطوط التى كتب بها القرآن أجزاء من قبل مصحف واحد . فامتازت الأمة الإسلامية بذلك الاجتماع على كتابها وخطه ورسمه وقراءته : وصدق قول الله سبحانه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .(١)

وهكذا كانت غنائم بدر تكاد لا تحصى منفعة ولا تحصر فى زمن . فاذا كان المال الذى قبضه المسلمون فى الفداء قد أنفق فى إبان عهد النبي . فقد عاد بالقوة والنماء على الإسلام ، فأمكنه أن يصبر على الزمن وينتشر على مدى الأيام .

أما هذا الفن من الكتابة والذى بدأ من فداء أسرى قريش فى الواقعة . فقد كان أثره أبلغ من كل كسب وأعظم من كل قوة ، إذ تعلم زيد بن ثابت الخط العربي الذى دون به القرآن فيما بعد .

ومع أن القرآن بكتابة زيد باق إلى القيامة ، فكذلك رزق الخط العربي لنفسه قوة لم يكن ليحصل عليها لو ظل لغة للحساب والأرقام دون أن يتناول الأفكار العالية وفنون الكلام .

(١) سورة الحجر الآية ٩ .



يقظة الثأر



يقظة الثأر

منذ أعز الله نبيه والمسلمين فى بدر . وقتل من قتل ، وأسر وفدى من أسر وفدى — خافه كل عدو بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، ودخل عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه فى الإسلام ظاهرا . (١)

وبلغ خبر الوقعة العرب فى أطراف الجزيرة العربية كلها وفى خارجها فحميت بذلك النخوة العربية فى كل مكان ، وصار للعرب — حتى ولو لم يكونوا قد أسلموا — عزة وافتخاراً .

ولقد حميت بهذا الانتصار قبائل ربيعة التى كانت تعادى الفرس فحاربت كسرى والتحم العرب والعجم فى وقعة ذى قار ، وتنادى العرب فى الوقعة قائلين :

عليكم بشعار التهامى ! فكان نداؤهم : يا محمد ... يا محمد ... فهزموا جيوش كسرى وقتلوهم .

وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ما حدث فى هذه الوقعة فقال :

« اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبى نصروا »

وكان يوم ذى قار بعد وقعة بدر بأربعة أشهر أو خمسة لا غير . (٢)

(١) زاد المعاد جـ٢ ص٩٠
(٢) تاريخ اليعقوبى جـ٢ ص٤٦

ولكن ماكادت فلول قريش تنصرف من بدر مدحورة أشد الاندحار ورآها أبو سفيان أمير العير وكان قد دخل مكة بقافلته ثم علم ما حدث فى بدر ماكاد يبلغه ذلك حتى أقسم أن يغزوا المدينة نفسها ليثأر منها .

ولقد نذر أبو سفيان أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمدا (١) ، ثم جعل يعد لذلك الغزو مدة شهرين .

ثم خرج فى مائتى راكب وحمل معه أزواداً كثيرة وسويقا كثيرا ، ثم سار بهم قاصدا المدينة ، فلما بلغ مكانا فى طرفها يقال له «العريض» (٢) نزل فحرق جماعة من صغار النخل لأهل المدينة لم يكن عندها أحد ، ثم وجد رجلا يقال له « معبد بن عمرو » ومعه أجير له يعملان فى حرث لهما فقتلهما وحرق أبياتا هناك وأشعل النار فى التبن ، ثم رأى أن يمينه قد حلت فكر راجعا عن المدينة . ولعلها لم تكن مسألة يمين يفى بها ، بل كانت مظهرا أمام أهل مكة يعتذر به أبو سفيان ، أو لعله كان قد علم أن المدينة قد تجهزت للخروج إليه مسرعة فأسرع فى النكوص ، فان مثل أبى سفيان لا يعود إلا وقد حذر ما يكون .

وما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغه الصريخ حتى نفر من المدينة ومعه عدد هائل من المسلمين ليلقوا ركب أبى سفيان أو يلحقوا به . ولو بلغهم الخبر فى إبان خروج أبى سفيان من مكة لم يبق لهذا الركب أثر . ولكن الله أبى لأمر عنده ، فكان أبو سفيان فى فراره أسرع من خطو المسلمين نحوه فنجا .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه حتى بلغ مكانا يقال له « قرقرة الكدر » (٣) وكان أبو سفيان قد فاته هو والمشركون الذين معه . فوقف عنده رسول الله .

---

(١) زاد المعاد جـ٢ص٩٠

(٢) العريض تصغير عرض واد بالمدينة ـ معجم البلدان فى العريض .

(٣) قرقرة القدر ويقال قرارة الكدر موضع بينه وبين المدينة ثمانية برد ـ معجم البلدان فى قرر ـ الطبقات الكبرى جـ٢ص٣١

ولم يعد المسلمون من هذه الغزوة بغير غنائم ، فان المشركين — حين علموا بخروج المسلمين وجدهم فى طلبهم — قد طرحوا عن أحمالهم كثيرا من السويق (١) الذى كان فى أزوادهم يريدون أن يتخففوا من أحمالهم ليساعدهم ذلك على الهرب والسرعة فيه . فأخذها المسلمون وعادوا بها إلى المدينة فسميت الغزوة بذلك : « غزوة السويق » وكانت فى السنة الثانية من ذى الحجة بعد بدر بشهرين وبضعة أيام .

ومن ثم لم تبق هدنة بين قريش والمسلمين ، فجعل رسول الله يغزو حلفاءها الضاربين قريبا من المدينة ويتعقب قريشا فغزا « بحران » بالحجاز ، وهو المكان الذى كان قد أضل عنده سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما — وقد تقدم تحديده عند كلامنا على « مفترق الطريق » .

وكان خروج النبى إلى بحران لما بلغه أن جمعا من بنى سليم بن منصور قد تجمعوا فيها ، فخرج فى ثلثمائة من أصحابه ، ولم يذكر أين يريد — كما صارت عادة حربية يتبعها فى كل حروبه من بعد — فلما صار ببحران وجد المتجمعين قد تفرقوا ورجعوا إلى مياههم فانصرف إلى المدينة ، دون أن يلقى كيدا أوحربا ؛ وقد كان خروجه هذا فى أخريات ربيع الآخر وأوائل جمادى الأولى من السنة الثالثة .(٢)

* * *

ثم عن لمشركى مكة بعد تقليب الأمور وبعد أن أوقع الله بهم يوم بدر واستأصل وجوههم — رأوا أن يتآمروا بالمهاجرين من المسلمين إلى أرض الحبشة

(١) السويق : الدقيق فى الجرب جمع جراب .

(٢) زاد المعاد جـ٢ص٩٠ — جوامع السيرة ص ١٥٣ — انساب الأشراف جـ١ ص٣١١ .

فيرسلوا بعثا إلى النجاشي ليوغروا صدره عليهم فيدفعهم إليهم فيقتلوهم بمن قتل منهم فى بدر .

ولكن كان على قريش وهى تختار بعثا سياسيا للنجاشي الذى احتضن المسلمين فى أرضه أن تلجأ إلى أدهى الناس فى القول والدخول والاحتيال ولا سيا وهى تعلم أن ذلك النجاشي لم تكن تخدعه الحيلة . فاستقر رأيها على اختيار رجلين منهم هما : عمرو بن العاص بن وائل وعبد الله بن أبى ربيعة أو عمارة بن الوليد .

وسار الرجلان ومعهما هدايا ثمينة تليق بملك الحبشة ، وهدايا أخرى تليق بالبطارقة الذين رأت قريش أن يكونوا المدخل إلى قلب النجاشي .

وكان من أعجب ما يحبه النجاشي ويرغب فيه مما كان يأتيه من بلاد العرب الأدم ، فجمعوا له صنوفا كثيرة غالية منه ، ولم يتركوا من البطارقة الأحباش أحدا إلا حملوا إليه ، إذ رأى عمرو وصاحبه — حتى تنسبك الحيلة — أن يدخلوا على الملك عن طريق رجال الدين .

وقد قيل إن عمرو بن العاص بعثته قريش إلى النجاشي مرتين ، مرة مع ابن أبى ربيعة ومرة مع عمارة بن الوليد — وعمارة بن الوليد هذا هو الذى كانت قريش تريد أن يأخذه أبو طالب ويعطيهم محمدا مكانه فى أول الدعوة الإسلامية فلم يرض أبو طالب سفاهة قريش ، وأبى أن يأخذ منهم رجلا ليربيه لهم ثم يأخذوا ابن أخيه ليقتلوه . (١)

ومنذ وصل البعث إلى أرض الحبشة بدأ بالدس لدى البطارقة فقال الرجلان لهم :

إنه قد لجأ إلى بلدكم غلمان منا سفهاء ، خالفوا دين قومهم . ثم لا هم بقوا عليه ولا هم دخلوا فى دينكم . أما ما جاءوا به فانه دين مبتدع لا نعرفه نحن ولا

---

(١) أبو طالب ص٦١

أنتم . وقد بعثنا آشراف قومنا إلى الملك لنكلمه فيهم ، فاذا حدثكم فى الأمر فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ، فوافقهما البطارقة على ما أراداه .

ثم قدما على الملك بالهدايا فقدماها إليه فقبل منهما ، فلما حان لهما أن يفاتحا الملك فيما جاءا من أجله كلماه فى حضرة البطارقة ، فجعل البطارقة يؤيدونهم فيما يقولونه ، ويشيرون على الملك أن يسلم إليهم المهاجرين ليرجعوا بهم إلى مكة.

وكان ذلك النجاشى على خلق عربى من الشهامة والحفاظ على الجار ، فقد قالوا إنه كان أميرا لاجئا فى بنى مرة هاربا من أهله فى صباه ، ثم عاد إلى الحبشة وتولى أمرها ، فأثرت فيه إقامته بين العرب فكان حاميا لجاره .

ثم كان النجاشى مسيحيا ملكانيا ، وهم الذين يقولون قول المسلمين من أن المسيح عيسى بن مريم عبد الله ونبيه . (١)

فحين سمع كلام عمرو بن العاص وصاحبه ومشورة البطارقة غضب وقال : لا أسلم قوما اختاروا جوارى على من سواى ونزلوا بلادى دون غيرها ، حتى أعلم عن يقين حقيقة أمرهم ، فاما رددتهم إلى قومهم وإما أحسنت جوارهم طالما رغبوا فى جوارى .

وأرسل النجاشى إلى المسلمين، فاجتمعوا جميعا فى مجلسه مع حاشيته وبطارقته وجعل بعث قريش بين يديه . ثم دار حوار بين النجاشى وبين المهاجرين إليه، وتولى الكلام جعفر بن أبى طالب — وكان رضى الله عنه على بينة من الإسلام وفقه فيه — فأوضح فى صراحة وصدق إيمان مبادىء التوحيد التى جاء بها الإسلام وكأنما ألهم الله كلامه أن يؤثر فى قلب كل من يصغى إليه ، فرضى النجاشى ما أوضحه جعفر . واقتنع منهم برأى الإسلام فى بشرية الأنبياء — وقد كان ملكانيا — ثم نظر إلى حاشيته وأمرهم برد الهدايا إلى بعث قريش .

---

(١) تفسير البيضاوى لسورة مريم .

قال جعفر بن أبي طالب :

أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ إلى الجار ويأكل القوى منا الضعيف .

كنا على ذلك حتى بعث الله عز وجل رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات .

وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

ثم جعل جعفر يعدد الفضائل التى جاء بها الصادق المبعوث ثم قال :

فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله عز وجل ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما حلل لنا .

فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك وآثرناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

وعندما انتهى جعفر من مقالته بين يدى النجاشي كان الملك قد تأثر وبلغ به تأثره أن طلب من جعفر أن يسمعه شيئا مما جاء به النبي ، فأخذ جعفر يتلو عليه سورة مريم .

وما أن مضى جعفر فى تلاوتها حتى بكى النجاشي وبكت أساقفته فلما انتهى جعفر من تلاوته قال النجاشي لعمرو وصاحبه : انطلقوا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا .

إلا أن عمراً لم تفرغ حيله فقد بقيت لديه دسيسة أخرى ، فشاور صاحبه فيها فأبى عليه ، ولكنه جاء الملك بها من الغد ، ولكن الدسيسة لم تفلح أيضا لأن اعتقاد الملك وافق فيها اعتقاد المسلمين .

وقد أخبرت بذلك الذى حدث كله فى الحبشة وبين يدى النجاشى أم المؤمنين أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها كانت من مهاجرة الحبشة وقد حضرت هذه المأساة (١) .

* * *

كان هذا البعث فى الحبشة وقريش تستعد للأخذ بثأرها ، فلما باء البعث بالخيبة أرادت قريش أن تعوضه فضاعفت استعدادها وجعلت تستمد حلفائها ، وكان من هؤلاء الحلفاء جماعة من العرب يقال لهم « أحابيش قريش » كانوا ينزلون عند جبل بأسفل مكة من بنى كنانة .

فخرج هؤلاء مع قريش وخرجوا مع نسائهم لئلا يفروا ، وحتى بنو زهرة الذين لم يخرجوا فى بدر خرج منهم رجال هذه المرة مع قريش ، وكان ذلك فى شوال سنة ثلاث من الهجرة ، وإلى أين ؟ إلى أحد (٢) .

فمنذ قدم أبو سفيان بعير قريش ووقفها فى دار الندوة مشت إليه البقية الباقية من أشراف قريش فقالوا له :

يا أبا سفيان : احتبس هذه العير فانها أموال أهل مكة ، وقد طابت نفوسهم بأثمان ما فى العير ، فباعوا ما كان فيها بذهب العين وتجهزوا به أو تجهزوا بأرباحه ، وقد قيل إن الدينار فى تجارة هذه العير قد ربح مثله دينارا .

(١) الدرر ص ١٤٢
(٢) جوامع السيرة ص ١٥٦، ١٧٣

وكذلك تجهزت قريش وحلفاؤها وساروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يغزونه فى أحد ، وكان قد بلغ النبي ما أجمعوا عليه فتهيأ هو وأصحابه لما أرادوه من لقاء (١)

ثم لم تكف قريش عن الثأر حتى بعد ثأرها من المسلمين فى أحد . فدامت على عداوتها حتى تم انحطامها مرتين :

مرة فى غزوة الأحزاب بالمدينة ، والمرة الأخيرة يوم فتح مكة وإسلام أهلها جميعا ، وعفو النبي صلى الله عليه وسلم عنهم بقوله لهم :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء »

* * *

وهذا كان فى مكة وما حولها ، أما فى المدينة من داخلها فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد وادع يهودها على أن لا يعينوا عليه أحدا ، وأنه إن دهمه بها عدوه نصروه ، وكتب النبي بينه وبينها بذلك كتابا (٢) .

فلما انتصر رسول الله فى بدر وقتل من قتل فيها من كفار المشركين قلق اليهود فأظهروا له الحسد والبغى وقالوا : لم يلق محمد من يحسن القتال ، ولو لقينا نحن لاقى عندنا قتالا لا يشبهه قتال . ثم نقضوا ما كان بينهم وبين النبي من عهود .

وهكذا بغى يهود المدينة بغى قريش ، وانتقل الأذى إلى صورة أخرى فى المدينة من الدس والنفاق والتحريض على الغدر ولم يرجع يهود المدينة عن خططهم حتى جنى عليهم بغيهم ما جنى على أهل مكة من قبل . فاستؤصلوا وطردوا عن المدينة بل عن جزيرة العرب كلها ، وكان أمرهم كأمر أولئك ، وكانت الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر .

(١) أنساب الأشراف ج ١ص ٣١١
(٢) المرجع نفسه ص٣٠٨

وسبق البؤس إلى بنى قينقاع فكانوا أول من نقض العهد من اليهود ، فذهب اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم بسوقهم التى كانوا يجتمعون فيها . وكان لواؤه مع حمزة بن عبد المطلب لواء أبيض ولم يكن يومئذ رايات وإنما هم فرقة واحدة تحت اللواء .

ثم قال رسول الله لهم :

« يامعشر يهود ، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فانكم قد عرفتم أنى نبي مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله إليكم »

فبعثوا إلى رسول الله من يقول :

يامحمد ، لايغرنك من لقيت ، فانما قهرت قوما أغمارا لاعلم لهم بالحرب ونحن بنو الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا .

وفى أثناء ذلك الأخذ والرد حدث عدوان على امرأة مسلمة كانت عند صائغ منهم فى دكانه فنشب قتال ، وتطور الأمر إلى محاصرتهم خمسة عشر يوما فتحصنوا فى حصنهم . ثم نزلوا مقهورين على حكم النبي الذى أعفاهم من القتل وأجلاهم إلى الشام ، فنزلوا بأذرعات ، ثم لم يلبثوا إلا قليلا حتى هلكوا وبادوا .

وقد وجد المسلمون فى حصونهم سلاحا كثيرا وآلات من آلات الصياغة ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أموالهم ودروعا لهم وقسياً وكثيرا من الرماح (١)

ولم يكن رسول الله قد أراد أن يمشى إليهم إلا أن يأذن الله له فأنزل سبحانه عليه

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » (٢)

(١) انساب الأشراف ج١ص٣٠٨ تاريخ الطبرى ج٢ص ٤٧٩

(٢) سورة الأنفال الآية ٥٨

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سوق بنى قينقاع فحضر عيد الأضحى فضحى هو وأهل اليسر من أصحابه يوم العاشر من ذى الحجة ثم صلى العيد ، فكان أول صلاة صلاها النبي بالناس بالمدينة فى عيد .

ثم كان قد حدث أنه لما قدم زيد بن حارثة إلى أهل الواطئة بالمدينة وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية ببشرى الانتصار فى بدر وقتل كبار المشركين قال كعب بن الأشرف – وكان رجلا من طيىء ، ثم أحد بنى نبهان . وكانت أمه من بنى النضير – فقال حين بلغه الخبر :

ويلكم ! أحق هذا ؟ أترون أن محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان ؟ وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة ونزل على أصدقائه هناك وجعل يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب ، ثم رجع إلى المدينة وجعل يشبب – كما قيل – بأم الفضل بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب ، وكانت أم الفضل من خثعم المشهورة بجمال نسائها ولكنها من الحمس الذين كانوا يتشددون قديما فى الدين – ثم شبب بنساء من المسلمين حتى آذاهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من لى من ابن الأشرف ! »

ولم يكد النبي يهيب بهذا النداء حتى خرج كثير من الرجال ، ومن يشبهون فى أيامنا أولئك الأبطال الذين نسميهم بالفدائيين ، فأتوا كعبا وأوهموه أنهم هم وأهل المدينة قد صاروا فى جهد وضيق منذ قدم عليهم محمد ، فصدقهم الجاهل المغرور ، لأن أخا له من الرضاع كان فيهم ، ثم ظلوا عنده أياما حتى

اطمأن إليهم فاستدرجوه إلى شعب بعيد ، ثم مالوا عليه بالسيوف . وظفرت الأوس بهذا دون الخزرج فغارت الخزرج منها .

وصاح عدو الله — حين أخذته السيوف — صيحة لم تبق حصنا من حولهم إلا استيقظ أهله وأوقدوا النار ، ولكن الرجال عادوا إلى المدينة فبلغوا النبي آخر الليل وهو قائم يصلى فأخبروه بقتل عدو الله .

وأصبحت المدينة وقد خافت يهود بوقعة المسلمين بعدو الله ، فليس بها يهودى إلا خاف على نفسه ، واشتد ما بين المسلمين وبين اليهود (١) ، وأذن رسول الله بقتل من يتعرض منهم للمسلمين .

وكان أبو رافع اليهودى يظاهر كعب بن الأشرف على رسول الله فوجه إليه النبي رجالا من الأنصار — وكانوا هذه المرة من الخزرج حتى يتساووا مع الأوس فى السباق — وعليهم عبد الله بن عتيك ، فلما أتوا حصن أبى رافع بأرض الحجاز اقتحموا عليه حصنه وقتلوه ، ونعاه الناس فى صبيحة الغد إلى أهل الحجاز ، وهكذا صنعت الخزرج بفدائييها مثلما كانت قد فعلت الأوس بكعب بن الأشرف فظفروا بالفضل المتساوى فى قتل أعداء الله (٢)

ثم هكذا جهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عملية حربية هامة هى « تنقية الجيوب » حتى لايكون أمام المسلمين خطر يمرون عنه غافلين .

وكان لا بد لقريش بعد وقعة بدر وبعد كل هذا الذى حدث من تنقية رسول الله للجيوب التى كانت ترتكز عليها — كان لابد لها من أن تغير طريق التجارة الذاهب إلى الشام المنحدر منه .

(١) جـ٢ تاريخ الطبرى ص ٤٨٧
(٢) المرجع السابق نفسه ص ٤٩٣

وقد تولى أبو سفيان ذاته قيادة العيرات كلها ، لأن قريشا قد وثقت فى مهارته وحيلته وإخلاصه لها ، فرأى أن يغير الطريق ، ويسلك بالتجارة القرشية طريق العراق .

وقاد أبو سفيان عيرا وتجارا ومعهم فضة كثيرة واستأجروا من يدلهم على هذه الطريق من بنى بكر بن وائل إذ كانت هذه القبائل على ذلك الطريق .

ولم يفت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسد عليهم هذه الطريق أيضا ، فحين علم بهذه العير الصاعدة للعراق أرسل سرية عليها زيد بن حارثة ، فلقيهم على ماء فى الطريق يقال له «القردة» (١) فأصاب زيد تلك العير وما فيها فقدم بها على رسول الله ، أما الرجال فحين رأوه ولوا هاربين ، وقد ظل زيد يطاردهم حتى أعجزوه عن اللحاق بهم . (٢)

وقد نسب التفكير فى اتخاذ هذه الطريق لصفوان بن أمية مع أبى سفيان . وكان لا بد لقريش من ذلك ، إذ لو حرموا تجارة الشام لأكلوا رءوس أموالهم وافتقروا وضاع اقتصادهم .

وقد أشار عليهم زمعة بن الأسود بالدليل البكرى الذى يسلك بهم طريق نجد ويعرف وهاده وجباله ووعره وسهله ، بحيث لو أغمض عينيه وهو يسير لا هتدى فيه .

وكان ذلك فى فصل الشتاء ، فلم تكن بهم حاجة إلى ماء فى طريقهم ينزلون عنده كما كانت الحال فى طريق الشام ، والتى كان سلوكها يكون فى الصيف .

وسلك الدليل بالعير حتى اعترضها زيد بن حارثة وأفلت أعيان القوم .

(١) القردة بالتحريك ماء بأرض نجد

(٢) تاريخ الطبرى جـ٢ص٤٩٢

وقد قسمت الغنائم من هذه السرية أخماسا ، فكان الخمس الواحد بالغاً عشرين ألفا ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقسم الأربعة الأخماس على السرية ، وأتى بفرات بن حيان العجلى الذى كان دليلا للعير أسيرا ، فقيل له : إن أسلمت لم تقتل :

فلما دعا به رسول الله أسلم فأرسله حرا . (١)

(١) تاريخ الطبرى جـ٢ص٤٩٣



القادة الأعلام

لقد ميز التاريخ كل من حضر من المسلمين فى هذه الغزوة مع النبي وكل من أدخله النبي فى أهلها فسماه بدريا ، وكان جزاء كل بدرى مع حظه من الغنيمة أن غفر الله له كل ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

كما أن الله سبحانه قد سمى الوقعة فى كتابه الكريم « يوم الفرقان » إذ فرق فيها بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والكفر ، فأعز الله الإسلام وأذل الكفر والشرك وعبادة الأصنام .

وحين غفر الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر كان الله سبحانه قد قدر أن هؤلاء لا يحدث منهم إثم فى مستقبل أيامهم ، وبذلك قال لهم سبحانه « اعملوا ما شئتم »

ومنذ أن عرف أهل بدر قادة أعلاما أمروا على الناس فى الخلافة والقضاء والفتوى والحروب ، ثم تبعهم الصحابة فكانوا لا يؤمرون إلا صحابيا فى الفتوح(١) ، فاذا أمروه ضمنوا النصر للمسلمين .

(١) الاصابة ج١ ص ٥٣٢ .

وجميع البدريين من المهاجرين رضوان الله عليهم كانوا ستة وثمانين رجلا ، منهم ثلاثة لم يشهدوها وأوجب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أجر من شهدها وجعل له سهما من الغنائم مثل من قاتل فيها ، وهؤلاء هم : عثمان بن عفان ، تخلف على امرأته رقية بنت رسول الله وكانت مريضة فتوفيت ودفنت يوم جاءت البشرى بالانتصار ، فضرب رسول الله له بسهمه من الغنيمة وبأجره من المشهد ، فهو بدرى .

ثم طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وقد تألما لغيبتهما عن بدر حين كانا غائبين بالشام فى تجارة ، فضرب لهما رسول الله بسهميهما وأجرهما فهما بدريان .

وكذلك ضرب رسول الله لخمسة من الأنصار بأجورهم وسهامهم فصاروا جميعا ثمانية ، وكان من الأنصار أسامة بن زيد .

وقد فاز بالاستشهاد من المسلمين أربعة عشر رجلا : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

* * *

وبعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الخلافة فى أربعة من أصحابه فى بدر : أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ، أما الأولان فكانا خطيبين فى المهاجرين والأنصار عند خروج النبي من المدينة إلى وادى ذفران كما كانا من أول من يشير على النبي ويؤخذ برأيه فى المشورة ولا سيما أبا بكر ، وقد سبق هذان الاثنان كل الناس إلى مناصرة رسول الله صلى عليه وسلم بالقول والعمل واقتحام موارد الموت والاستشهاد ، وكذلك كان شأنهما دائما من ناحيتين : يسبقان الناس ثم هما فيما بينهما يتسابقان .

فلما وليا الخلافة كان بحسب أبى بكر أن أرجع المرتدين إلى الإسلام ، وأن ربى فى حروب الردة قادة المستقبل القريب .

ثم جاء عمر فأسقط الدولتين المحيطتين بالجزيرة : فارس والروم ، ثم استولى على أرض فارس وعلى كثير من البلاد التي كانت تحت الروم ولا سيما مصر ، وربما كان بعض قواده ورجاله من طرفى القتال فى بدر : من المسلمين وممن أسلموا بعد .

وجاء عثمان فظلت الفتوح تمتد فى سنى خلافته الأولى ، ثم جاء بعده حيدرة على بن أبى طالب ، وعلى ماحدث مما يؤسف — فى أيام هذين الخليفتين ، فان قوة الإسلام الضاربة ظلت منطلقة فى كل نواحى الأرض تخضعها وتستولى عليها .

ومن غرائب الأقدار أن يستشهد ثلاثة من هؤلاء الخلفاء البدريين ، وهم خلفاء على الناس ، وكأن طيف الاستشهاد ظل يحوم عليهم حتى نزل بساحتهم والتقى مع آجالهم .

ومثل هؤلاء فى الطبقة الأولى من أهل بدر — لو صح أن نقسم أهلها إلى طبقات — أولئك الأربعة عشر الذين استشهدوا فى الوقعة فمهدوا للإسلام انتصارات رائعة متتابعة فى عهد النبي وعهود الخلفاء والعهود التى تلتها حتى قبض أهل بدر جميعا ثم قبض أصحاب رسول الله .

ولقد كان من اليمن لكل كتيبة إسلامية محاربة تنبعث فى الأرض أن يكون عليها بدرى ، فقد ثبت أنه ما من معركة حضرها واحد منهم إلا كان فيها فتح وانتصار .

ومن الحق أن يقدر للأنصار ما فعلوا فى بدر ، ثم فى غير بدر بعدها ، مع أنهم لم يكونوا قد بايعوا النبي فى العقبة — كما ذكرنا من قبل — إلا على نصرته داخل مدينتهم .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كاد يهيب بهم إلى بدر حتى تسابقوا فى تلبيته ، وكان منهم فى المعركة أبطال ضربوا أعظم الأمثال فى التضحية

ولئن كان مقدرا أن يغلب الغيظ وحب الثأر على من حضر بدرا من المهاجرين والمستضعفين فيميلوا إلى الشدة والعنف – كما رأينا ما حدث من بلال بن رباح مع أمية بن خلف – فانه لم يكن فى نفوس الأنصار نحو أهل مكة ما كان فى فى نفوس المهاجرين والمستضعفين .

إلا أن هؤلاء وهؤلاء تساووا فى عداوة قريش عندما أصبح الدين وأصبحت المبادئ هى التى تشير بالعمل والمضى فى أبعد حد إلى نصرتها .

ومهما بلغ العنف حدته فيما حدث فقد تساوى فيه الأنصار والمهاجرون فكانوا جميعا أشداء على الكفار رحماء بينهم ؛ وبان فى بدر وفى كل الغزوات والفتوح أن الأنصار قد وفوا بالمبايعة فى العقبة ثم ذهبوا إلى كل ما يطلبه منهم الدين.

* * *

وربما كان من الخير أن نشير هنا إلى جملة من أصحاب النبى فى بدر ، من المهاجرين والأنصار غير أولئك الذين استشهدوا وغير أولئك الذين تولوا الخلافة أو ذكروا أفرادا فى أثناء هذا الكتاب ليتبين أنهم جميعا صاروا قادة أعلاما ، لهم تهتز المواقع ، وبهم تبتهج المجالس .

وليس معنى هذا الاختيار أننا نميز قوما بدريين عن قوم آخرين إذ هم على قدم المساواة فى الأجر والمنزلة ، وحسبهم أنهم جميعا قد غفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، وإن كان لأحد أن يمتاز فللعشرة السابقين إلى الإسلام من المهاجرين والذين ضمنت لهم الجنة .

أما أكابر المهاجرين فمنهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وقد فعل حمزة بمشركى مكة فى بدر الأفاعيل ، وقد قتل فى أحد هو ومصعب بن عمير ، وكانت قريش قد قصدت إلى حمزة قصدا حتى تثأر منه . (١)

---

(١) انظر احصاء المهاجرين والأنصار البدريين بجوامع السيرة لابن حزم .

وعبد الرحمن بن عوف الزهرى وقد كان جوادا كريما باع أرضا له بأربعين ألف دينار فتصدق بها كلها . وقد حارب فى أحد فأصيب فى الوقعة بأكثر من عشرين جراحة بعضها فى رجله فعرج منها .

والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى صاحب الدار التى كانت للدعوة السرية فى الإسلام ثم خرج منها أهلها يعلنونه على رءوس الناس حين صاروا قوة تهاب .

وحلفاء هؤلاء ومواليهم كثيرون ، نذكر منهم فئة قليلة من غير تفصيل لأن أسماءهم كالأعلام الخافقة المنصوبة لا تغيب عن عين ولا مشاهدة :

فمنهم زيد بن حارثة . وآل محصن : عكاشة وسنان وأبو سنان وسنان بن أبى سنان . ثم حاطب بن أبى بلتعة صاحب القصة فى مراسلة قريش قبيل فتح مكة . والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله قاتل عمرو بن الحضرمى . ثم بلال ابن رباح المؤذن وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وكان من السابقين الأولين وقد مات بدمشق من بلاد الشام . ثم عامر بن فهيرة وصهيب ابن سنان الرومى ومهجع مولى عمر بن الخطاب وقد استشهد يوم بدر .

وأما الأنصار فكانوا من الأوس والخزرج ، ونذكر كذلك فئة قليلة منهم وكلهم أعلام وقادة ، فمنهم : آل معاذ : سعد وأخوه عمرو والحارث بن أوس ابن معاذ . ومنهم عبيد بن أوس بن مالك بن سواد وقد سمى مقرنا لأنه أسر وحده فى بدر أربعة من قريش فقرنهم كلهم فى حبل وساقهم ، وكان أحدهم عقيل بن أبى طالب .

ثم سهل بن حنيف وثعلبة بن حاطب وخوات بن جبير . ولهؤلاء جميعا حلفاء وموال كثيرون كانوا معهم فى القتال .

وكل أولئك كانوا من الأوس ، أما من الخزرج فعبد الله بن رواحة صاحب الراية المشهورة مع صاحبيه فى مؤته . وأبو دجانة سماك بن خرشة المشهور

بمشية العجب فى الحرب والتى حدث رسول الله عنها أنها مشية مكروهة إلا فى هذه المواقع .

ثم آل الجموح : الحباب بن المنذر وعمير بن الحمام وقد استشهد فى الموقعة ومعاذ بن عمرو ومعوذ بن عمرو وخلاد بن عمرو ، كلهم من بنى الجموح ، وأولهم هو الذى أشار على النبى فى موقفه على مياه بدر .

ثم بنو الحارث عوف ومعاذ ومعوذ وقد استشهد فى الموقعة وهم بنو الحارث ابن رفاعة من بنى النجار وهم بنو عفراء .

وأبو طلحة الأنصارى كان ممن يضرب بشجاعته المثل ، وقد قتل يوم حنين عشرين نفسا وأخذ أسلابهم ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول فيه :

« صوت أبى طلحة فى الجيش خير من فئة » (١)

ومنهم بشر بن البراء وجابر بن عبد الله بن رئاب وأبو اليسر وهو الذى عرفنا من قبل أسره العباس بن عبد المطلب .

ثم معاذ بن جبل وأبو أيوب الأنصارى الذى نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة .

وجميع أهل بدر ثلثمائة رجل وتسعة عشر رجلا ، منهم من غاب عنها وضرب له بسهمه وأجره : ثمانية رجال . والباقون شهدوها بأنفسهم ، وهم ثلثمائة وأحد عشر رجلا . رضوان الله عليهم أجمعين .

* * *

وحتى نحصى فضل أصحاب بدر فاننا فى حاجة إلى مجلدات ضخمة ، ولكن بحسبنا أن نذكر بعض رجالهم فى فضل العلم والتشييد والفتوح ، وقد قلنا

(١) دول الاسلام ج١ص١٥ .

من قبل لإنهم كانوا لايؤمرون على الفتوح إلا الصحابة ، ويفضلون أهل بدر فاذا ولوهم قيادة الجند ضمنوا لأنفسهم الانتصار . (١)

ولقد كان من العلماء البدريين الأعلام عبادة بن الصامت الأنصارى وعبد الله بن مسعود الهذلى ، أما الأول فكان أحد نقباء الأنصار فى بدر وقد تولى قضاء بيت المقدس — من بعد — وكان من جلة العلماء . وأما الثانى فكان أحد حفاظ القرآن ، تلقى عن النبي سبعين سورة . ثم جمع عثمان بن عفان الناس على خط زيد بن ثابت وقراءته .

وعبد الله بن مسعود هو الذى أخذ رأس أبي جهل فى بدر ثم أقام بعد بالكوفة واليا على بيت المال . وقد تفقه به أناس كثيرون .

ثم كان من البناة أهل التشييد عتبة بن غزوان المازنى البدرى ، فقد ابتنى عتبة مدينة واختطها بأمر عمر بن الخطاب ، واشترك فى كثير من الفتوح(٢) وكان عتبة من أصحاب الهجرتين : الهجرة إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة بعد رجوعه منها .

فاذا انتقلنا إلى ذكر بعض صناديد بدر فانا نذكر منهم ثلاثة على سبيل المثال : الزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة عامر بن الجراح .

أما الأول فهو حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية وشقيقة حمزة(٣) وقد بعثه عمر بن الخطاب مددا لعمرو بن العاص فى فتح حصن بابليون بمصر ففتح الحصن واقتحمه الناس ، وسلم المقوقس البلاد ، إلا ما فتح منها عنوة . وقد مات الزبير فى إثر وقعة الجمل فى أيام على .

(١) انظر أمثال هذه الأخبار فى الجزء الأول من دول الاسلام
(٢) الاصابة ج٢ص ٤٤٨
(٣) الاصابة ج ٤ص٣٣٩ .

وأما الثاني وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله فقد أطلقوا عليه « فارس الإسلام » وقد جعله أبو بكر رضي الله عنه بعد حروب الردة على عسكره فاتجه سعد بن أبي وقاص بجند العرب من الجزيرة كلها إلى مملكة كسرى ، وكانت جيوش الفرس مائة ألف أو يزيدون ، فكسرهم المسلمون غير مرة وغنموا أموالهم وأسروا منهم وسبوا .

وكان الفرس أو الذين لقوا سعدا من جنودهم مجوسا من عبدة النار فخطرت في بلادهم لأول مرة أقدام الموحدين .

ثم صار سعد بعد فتح العراق وإزالة كسرى عنها نائبا عليها حتى عزله عثمان بن عفان .

وأما الثالث وهو أبو عبيدة عامر بن الجراح فهو قائد الفتوح في الشام ، فتح مدائنها بعد أربع مصافات أكبرها وقعة اليرموك بأرض حوران .

وكان المسلمون في اليرموك أكثر من عشرين ألفا ، لقي بهم أبو عبيدة أكثر من مائة ألف فارس من فرسان الروم ، فهزموهم هزيمة نكراء وقتلوا نصف الجيش . ثم كان فتح دمشق على يده . ومات أبو عبيدة بالثغور في خلافة عمر بن الخطاب .

* * *

وهكذا كانت بدر مدرسة القادة الأعلام كما كانت مدرسة الايمان والإخلاص لله ورسوله . وربما صح أن يطلق على رجالها « رجال الثورة الأولين » ثم لم تكن مدرسة أولى منها بتخريج الرجال وتربية الأبطال .

كان منها الخلفاء الراشدون ثم قواد الفتوح والمعارك ولم يكن في الظن أن يتقدم جندي هو أحد الثلثمائة المحاربين في بدر مع النبي فيقتحم حصونا كما فعل الزبير أو يدمر جيش كسرى وجيش قيصر كما فعل سعد بن أبي وقاص وكما فعل أبو عبيدة بن الجراح .

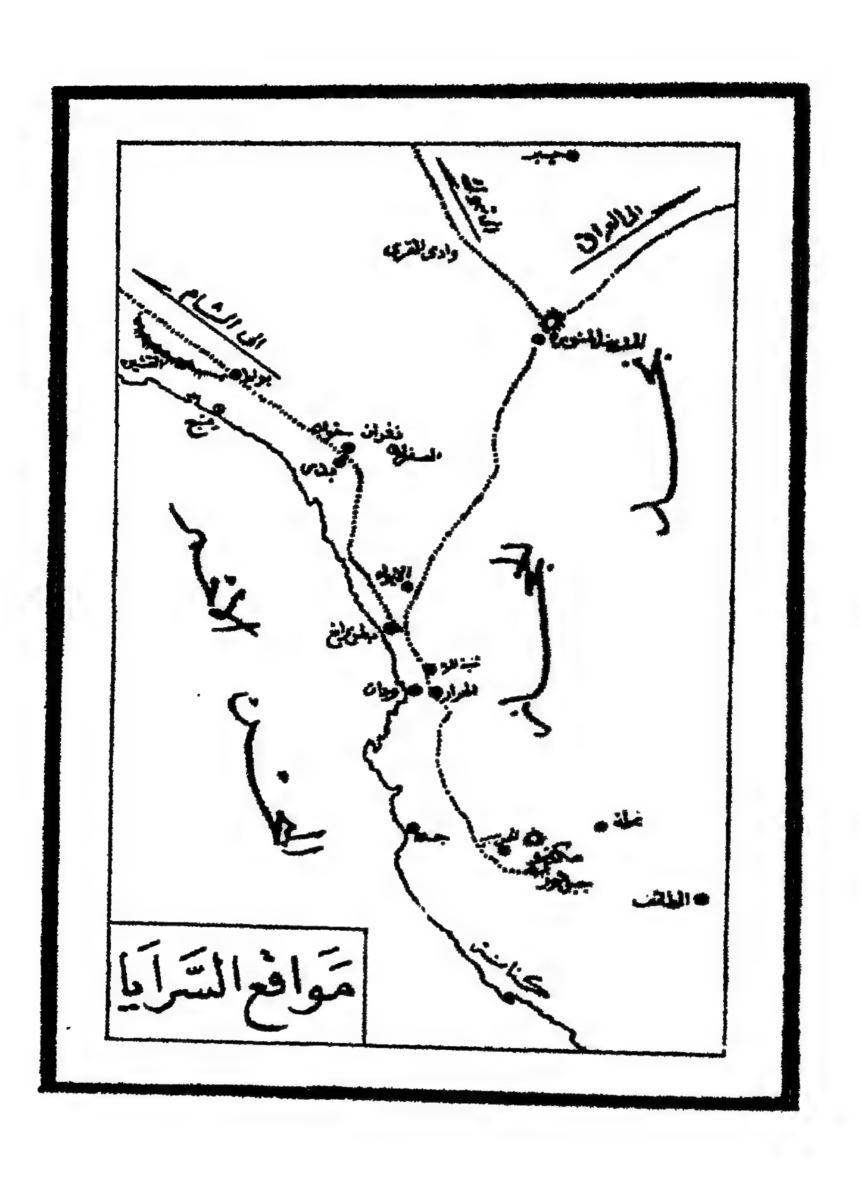
ولم يبال أهل بدر حين خرجوا للفتوح أن يعودوا إلى المدينة ، وإنما تبعثروا في الحروب ليثبتوا قدم الإسلام في كل مكان فتحوه ، فمات أبو أيوب الأنصارى في غزاة القسطنطينية سنة خمسين بعد أن لزم الجهاد وداوم الغزو بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكأنما كان موته هناك رمزا لفتح البلد للإسلام بعد مدة من الزمان .

ومات على بن أبي طالب بالكوفة ، وسعد بن عبادة بأرض حوران ، وأبو عبيدة بالثغور ، وبلال بدمشق أو بداريا ، وكثير غير هؤلاء ، إلا قليلا ممن ماتوا بالمدينة بعد رجوعهم من الفتوح .

وحسب أهل بدر أن يكونوا أكبر من نصر الإسلام ، ثم هم وحدهم من بين المسلمين جميعا حاربت الملائكة في صفوفهم ، ثم هم الذين غفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر . فرضى الله عنهم أجمعين .

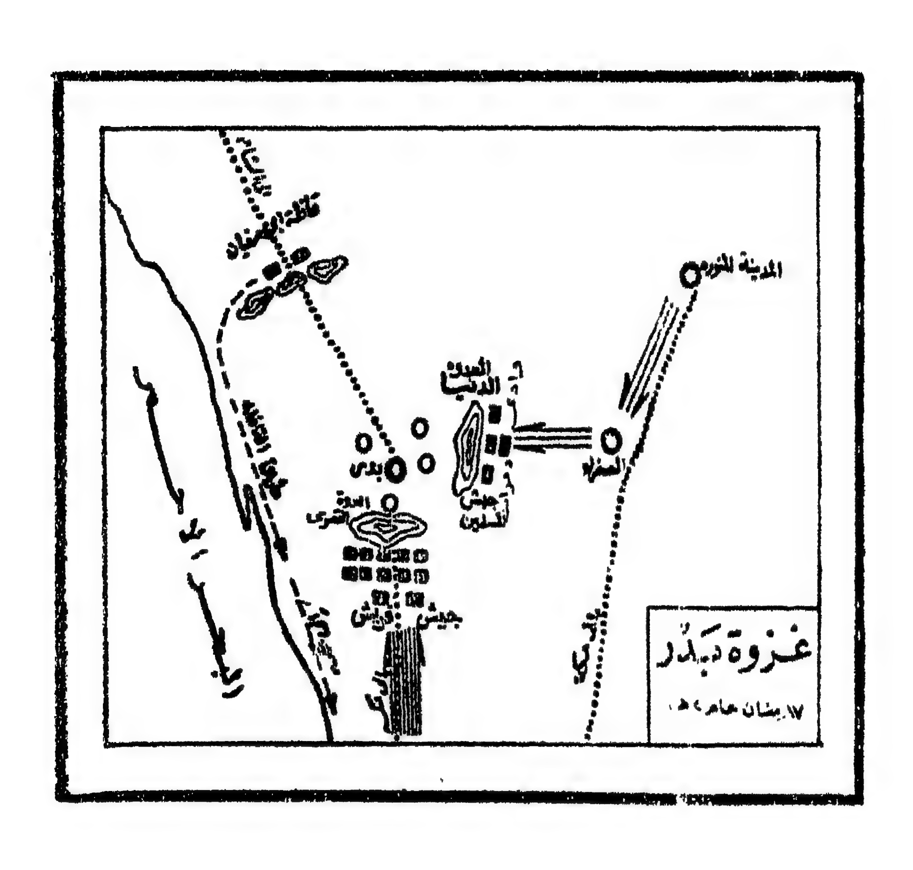


شبه جزيرة العرب
قبل الإسلام
العراق
فارس
نجد
بكر
هوازن
سليم
هذيل
عمان
الربع الخالي
حضرموت
خليج عدن



مواقع السرايا
إلى الشام
إلى العراق
وادى القرى
المدينة المنورة
بدر
الأبواء
نخلة
الطائف





غزوة بدر
١٧ رمضان عام ٢ هـ
المدينة المنورة
قافلة أبي سفيان
العدوة الدنيا
جيش المسلمين
بدر
العدوة القصوى
جيش قريش

مَراجِعُ الكِتَابِ

(١) القرآن الكريم

(٢) تفسير القرآن للبيضاوى

طبعة المشهد الحسينى ... ... بالقاهرة

(٣) تفسير القرآن للجلالين

طبعة المشهد الحسينى ... ... بالقاهرة

(٤) أسباب النزول

على هامش الجلالين ... ... بالقاهرة

(٥) صحيح البخارى

طبعة المشهد الحسينى ... ... بالقاهرة

(٦) أبو طالب (لسيد الأهل)

طبعة دار العلم ... ... ببيروت

(٧) الإصابة (لابن حجر العسقلانى)

طبعة المكتبة التجارية ... ... بالقاهرة

(٨) تاريخ الطبرى

طبع دار المعارف ... ... بالقاهرة

(٩) تاريخ اليعقوبى

طبعة دار صادر وبيروت ... ... ببيروت

(١٠) جعفر بن محمد
(لسيد الأهل)
طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ... ... بالقاهرة

(١١) جوامع السيرة (لابن حزم)
طبعة دار المعارف ... ... بالقاهرة

(١٢) من حضارة الإسلام (لسيد الأهل)
طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ... ... بالقاهرة

(١٣) الدرر (لابن عبد البر)
تحقيق الدكتور شوقى ضيف
وطبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ... ... بالقاهرة

(١٤) دول الإسلام (للذهبي)
طبعة دار المعارف النظامية بحيدر آباد ... ... بالدكن

(١٥) زاد المعاد (لابن قيم الجوزية)
طبعة المطبعة العصرية ... ... بالقاهرة

(١٦) السيرة النبوية (لابن هشام)
مطبعة الحلبي ... ... بالقاهرة

(١٧) سير أعلام النبلاء (للذهبي)
طبعة دار المعارف ... ... بالقاهرة

(١٨) الطبقات الكبرى (لابن سعد)
طبعة دار بيروت ... ... ببيروت

(١٩) لباب الآداب (لأسامة بن منقذ)

تحقيق الأستاذ أحمد شاكر

وطبعة المطبعة الرحمانية ... ... القاهرة

(٢٠) مختارات (لبعض الأساتذة)

طبعة ... ... بالقاهرة

(٢١) مروج الذهب (للمسعودى)

طبعة المكتبة التجارية ... ... بالقاهرة

(٢٢) معجم البلدان (لياقوت الحموى)

طبعة دار بيروت ... ... بيروت

(٢٣) الناسخ والمنسوخ (لأبي جعفر النحاس)

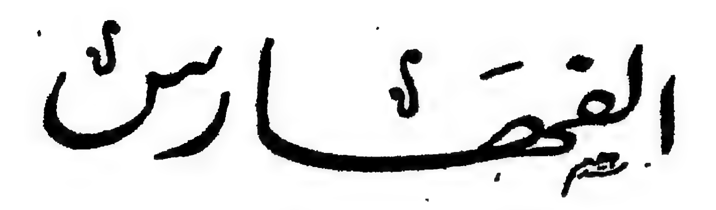
طبعة المكتبة العلامية بالأزهر ... ... بالقاهرة

(٢٤) أنساب الأشراف (للبلاذرى)

طبعة دار المعارف ... ... بالقاهرة

(٢٥) الاستيعاب (لابن عبد البر)

طبعة المكتبة التجارية ... ... بالقاهرة



- فهرس الموضوعات
- فهرس المصورات
- فهرس الرسوم

(١)

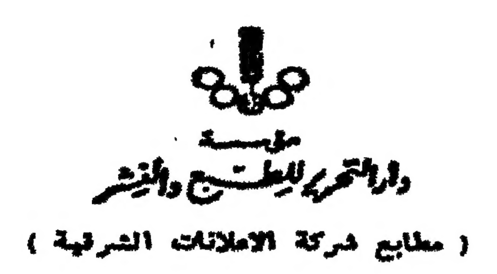
فهرس الموضوعات

(٢)

المصورات

(٣)

الرسوم



(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)

